رقة القتل

……………………………………….

رواية

رقة القتل

رواية

أحمد طوسون

الطبعة الأولى: 2015

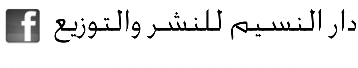
رقم الإيداع: 2015/8024

ISBN: 978-977-6452-80-0

دار النسيم للنشر والتوزيع

ت: 01006229487

e mail: daralnassim@yahoo.com



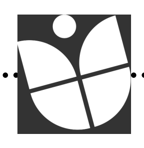
المدير العام: **أشرف عويس**

إشراف فنى: **د. هند سمير**

رقة القتل

رواية

أحمد طوسون



(1)

الذئاب لا يتركون شيئًا
لمن أرادوا لأنفسهم أن يظلوا حملانا

كانا ككهلين، يجران خطواتهما الثقيلة بمحاذاة البحر ويثرثران.
وكانت الشمس تلوِّن السماء بلون أحمر يغرس حزنًا مُبهمًا في النفوس وترقبهما من بعيد بابتسامة هازئة قبل أن تغيب.
تطلع سيف ناصر إليه بعد أن استند إلى السياج الحديدي لبحر يوسف ولمح نمشًا بنيًّا صغيرًا احتل ملامح وجهه.
تساءل إن كان الواقف أمامه شوقي الذي يعرفه أم مسخًا لآخر لم يعد له وجود إلا في بقايا الذاكرة. وأحس بشعور ساخر جعله يبتسم دون إرادة.
سمع صوت محرك سيارة مرت برفق بجوارهما، بينما كان كاسيت السيارة يزعق بأغنية (وبحبك يا حمار) للمطرب الشعبي الذي أصبح يطارده في كل مكان.
فكَّر قليلا وتعجب من نفسه أيضًا.
ما الذي يدفعه ليقطع الطريق الطويل من مدينة نصر إلى الفيوم ما بين فترة وأخرى، هل من أجل لقاء مع صاحبه القديم لاسترجاع أيام وذكريات ولت ولن تعود.. أم هو الحنين إلى الماضي؟
لم يكن من السذاجة ليصدق تلك الأكاذيب التي قفزت إلى رأسه، اصطناع الوفاء الكاذب للأصدقاء أو الحنين إلى الماضي والذكريات.. النظر إلى الماضي على أنه نعيم مطلق والحاضر على أنه بؤس مقيم.
يجب ألا يكون مسرفًا في الرومانسية، لابد أن هناك سببًا آخر يدفعه لتكرار زياراته لشوقي!

سبب مبهم في أعماق النفس وطياتها، يتكاثف ويتصاعد ويفور، فلا يستطيع سد فوهاته إلا بالعودة إلى هنا، وملاقاة صاحبه.
تلك المرآة الصدئة التي اعتاد تأمل وجهه من خلالها، برغم قسوتها وبشاعتها، قادرة على مساعدته في اختيار عالمه القادم!
هل لأنه كان برفقته في ذلك الاجتماع الذي غيَّر كل شيء؟
لم يكن اليوم ينبئ بأكثر مما هو معتاد، هبَّت ريح خريفية قاسية لا تعبأ بهزات الأشجار العنيفة التي اصطفت بمحاذاة البحر، ولا لتساقط أوراقها الضعيفة.
جلس سيف بركن المقهى لا يفعل شيئًا إلا معاودة النظر إلى ساعته في انتظار أن يأتي أحدهم ليشاركه الإحساس الخانق الذي يخلفه الخريف في نفسه.
خريف نوفمبر العجوز.. أم خريف الأمنيات التي تموت واحدة بعد أخرى مخلفة وراءها الملل والخوف والعجز. لا يعرف على وجه الدقة!
أحيانًا يميل إلى الكفر بتقسيمات العمر التي لا معنى لها.. ويظن أنه قد خطا خطوات واسعة نحو كهولته، دون أن يعرف طريقًا إلى عتبات الشباب.
البقاء بلا عمل، نظرات الاتهام التي تحاصره من والديه كأنه يمتلك مفاتيح أبواب الجنة ويرفض الدخول!
التنقل من مقهى إلى مقهى والثرثرة في كل شيء، من الأدب إلى السياسة إلى الأهلي والزمالك، والحديث عن أحلام لا تظهر لها بشارات أو تنبت لها أجنحة.
حتى الجرائد الملعونة تغلق أبوابها في وجهه.
شوقي نشر قصة أو قصتين، أما هو فلا يكلف أحدهم عناء الرد عليه ولو في بريد القراء، رغم الخطابات التي يضعها كل يوم في صندوق البوستة.

حين نشر شوقي قصته الأولى شعر بالحنق عليه.. شوقي لم يكن بحاجة إلى أن تُنشر قصته. في النهاية عنده زوجة وابن سيعود إليهما في آخر النهار.. أما سيف فكان بحاجة إلى قصيدة واحدة يمسك بها في زهو أمام والديه ويقول لهما: أنا شاعر.

هل يعرفان معنى شاعر؟.. لا يهم، سيشعران بالفخر لاسم ابنهما الذي يزين صفحات الجريدة.

قطع شوقي خيط أفكاره المتسلسل الذي جعله ينسى ملاحقة عقارب الساعة بملل حين سحب كرسيًّا وجلس إلى جواره وقال:

- اطلب لنا قهوة بسرعة.. عندنا موعد مهم.

صحبه إلى محطة مصر، وركبا السيارة البيجو المتجهة إلى هناك.

في الطريق قطع نشيج الست وهي تشدو حزينة (فات الميعاد) في كاسيت السيارة، فتجتر الذكريات والألم.. أخبره أن المؤسسة الثقافية دعت إلى اجتماع يحضره ممثلون عن أدباء الأقاليم.. اتصلوا به ليحضر الاجتماع ممثلا عن الفيوم.

(تلك القصة اللعينة التي نشروها له جعلتهم يتغافلون عنِّي ويرسلون إليه).. هكذا حدَّث نفسه قبل أن يصيح فيه:

- ولِمَ لمْ تخبرني من قبل.. ماذا ستفعل لنا المؤسسة؟

تساءل ثم عاد وأجاب على نفسه:

- ستلقي لنا ببعض الفتات من أجل تطويعنا، وتعود بعدها تمتص دماءنا بتلذذ.

جرَّه شوقي مشجعًا:

- يا أخي لن نخسر شيئًا.. سنتفرَّج عليهم ونحصل على بدل انتقال يكفي حساب المقهى لليلة.

***

في قاعة الاجتماع لم يجدا العدد الذي تخيَّلاه.. القاعة الفسيحة التي تزينت بورود بلاستيكية باردة وجافة كالجالسين من الأدباء، يشرعون أحذيتهم في وجه كرسي المسئول الخالي.

كانوا لا يزيدون عن عدد أصابع اليد الواحدة.. وجوه اعتادا رؤيتها كلما حضرا ندوة أو أمسية بالقاهرة. لم يجدا وجهًا واحدًا من الأقاليم البعيدة النائية.

نظر كل منهما إلى الآخر وفي عينيه نظرة تسفيه للأفكار التي راودت رأسيهما وجرجرتهما إلى هنا. أخذا نفسًا عميقًا وقالا في نفس اللحظة:

- لم يحضر أحد غيرنا.

ابتسما واختارا مقعدين نائيين في آخر القاعة واكتفيا بالمشاهدة.

المسئول الكبير أبدى ملاحظة عابرة عن الأحذية المشرعة في وجهه دون أن يستطرد كثيرًا.. قال إنه بدأ حياته بحماسة لا تقل عنهم. كان على استعداد دائمًا أن يجلس ويضع حذاءه في وجه أي مسئول مهما كان حجمه أو وزنه في الدولة، لكنه اكتشف أن المعارك مهما طالت لابد لها من نهاية، ولكي تصل إلى نهاية تحمل معنى الانتصار لابد أن تضع قدمك على الأرض وتفكر برأسك في الأسباب التي جعلتك تحارب طيلة الوقت وتعرف من أجل أي شيء حاربت.

أحدهم قال باستهانة:

- شكليات قميئة.. فأنتم تدهسون بأحذيتكم رؤوسنا.. تأخذون كل شيء ولا تريدون أن تتركوا حتى الفتات.

رمقه بنظرة من بعيد، وتجاهله مكملا حديثه:

- رئيس المؤسسة منزعج من هجومكم غير المبرر على المؤسسة.. كلما أمسك بجريدة أطلت ألسنتكم الحادة من بين صفحاتها. كلنا مقتنعون أن المؤسسة بحاجة إلى تغيير في أفكارها، وبحاجة إلى شباب ليضخّوا

روحًا جديدة بها.. من يرغب منكم في التعاون معنا سنتعاقد معه للعمل بالمؤسسة.. نريد لأفكاركم الجريئة أن تنبت بين جدران المؤسسة.

ثم استطرد قائلا:

- لا أستطيع أن أضيع الكثير من الوقت معكم.. من المفترض أن أحضر افتتاح مهرجان السينما اليوم.. ورغم مشاغلي أصريت على الحضور والالتقاء بكم.

كانت كلماته كفيلة بأن تُهدّئ من ثورة الأدباء وتجعل أحذيتهم ترسو على الأرض باطمئنان.

سيف تطلع إلى شوقي الذي ما زال متشبثا بمقعده لا يريد أن يغادره، وقال:

- ألن تضع اسمك معهم؟

تساءل شوقي متعجبًا:

- وأترك الفيوم؟!

مط سيف شفتيه امتعاضًا دون أن يعقب، وأسرع ليسجل اسمه في كشف المتعاقدين الجدد، بينما سحب شوقي أوراقه التي دون فيها ملاحظات لم يستمع إليها أحد، وجرجر خطواته عائدًا إلى بلدته وزوجته وابنه.

***

لابد أن ذلك الاجتماع البعيد هو السبب الذي يجعله يعود إلى هنا، وإلا فماذا غيره؟!

ربما يفكر شوقي في زياراته تلك على أنها بحث عن إجابة شافية حين تعاود المبادئ التي صاغها الأصدقاء القدامى إلحاحها ووخزاتها؛ الحرية.. الكرامة.. العدالة الاجتماعية.. أن نصنع العالم الذي تتمناه عيوننا.. الكفاح من أجل قضية نؤمن بها وعلى استعداد للقتال من أجلها.. الشفافية، تلك الكلمة التي أصبحت تثير التهكم؟ أن يزهو أحدهم بعنترياته الموهومة

أمامه.. إجابة سيلقيها في وجه أحدهم باطمئنان وكأنها كافية لتغفر له كل السقطات.. سيقول مطمئنًا: (من غيري يحرص على العودة إلى هنا رغم كل مشاغلي.. اتركوا المبادئ والشعارات القديمة لحالها.. فلا الزمن ظل كما هو، ولا نحن مازلنا ببراءة اندفاعنا القديم).

قد يكون شوقي محقًّا.

كل واحد منهم يحمل في جعبته من السقطات ما يجعله غير قادر على التحديق في عيون الآخرين بجرأة الزمن الذي انفلت من بين أيديهم، وبرغم الأقنعة التي يجيدون ارتداءها كلما حانت مناسبة للأحاديث المجانية عن الثقافة والإبداع والمستقبل الذي ينتظر الوطن، والقضايا الكبرى التي استخدموها كمناديل ورقية يمسحون بها مؤخراتهم القذرة ثم يلقون بها واحدة تلو أخرى في صناديق القمامة دون أن يبكوا على شيء، ولا يبقى منها إلا تواريخ قديمة للذكرى، أو للتشدق بالشعارات الرنانة على صفحات الجرائد أو عبر شاشات التليفزيون.

أيا كان السبب لا يريد أن يعرفه، فربما لو تبينه لانقطعت خطاه إلى الفيوم للأبد. شعر بجفاف حلقه ولسانه.

يجب عليه أن يعترف أن الحنين إلى الماضي له مذاق لاذع وجميل في آن واحد، نكهة مازال يستلذ بمذاقها. فلم عليه أن يحرم نفسه من المتع الصغيرة؟!

من السماء الصافية تدلَّت نجمات خجلى وسقطت ابتسامات بلورية صافية الزرقة ونسمات رطبة.

لمح شوقي ابتسامة ترفرف على شفتيه فسأله عن سببها، ثم شعر ببعض الندم على تعجله بالسؤال.

كاد يلوم نفسه على تعجله الدائم في التصريح بكل ما يخطر بباله دون تأنٍّ.

لكن سيف ناصر لم يعطه الفرصة، تدلت ابتسامته كشيء كريه على شفتيه، وقال:

- لا شيء تقريبًا.

أشار إلى بائع ترمس مر بجوارهما وأخذ كيسًا وأعطى آخر لصاحبه، أحس عند شرائه الترمس بأنه يستطيع أن يمسك بمذاق الثلج المهروش، ويستعيد أيامًا بعيدة يراها جميلة الآن.

نظر إلى عيني صاحبه، وقال متسائلا:

- أنت تجاوزت المليون يا شوقي؟

مط شوقي شفتيه وسحب نفسًا عميقًا وظن نفسه عالقًا بين السماء والأرض، يتأرجح ولا تستطيع قدماه أن تحملاه.

هرب بنظراته بعيدًا يتابع طفلا يركب دراجته وأمه الشابة تتبعه بنظراتها.

- هل تسخر مني يا سيف؟!

- ولِم أسخر منك؟ المليون أصبح مبلغًا زهيدًا، مصر تمتلك 91 ملياردير و100 ألف مليونير طبقًا لآخر إحصائية نشرتها أخبار اليوم، ومتوسط ثروة المليونير 15 مليون.

....

أنت الوحيد من أصحابنا الذي لم يفتتح مشروعًا أو يتاجر بأمواله، حتى البيت القديم لم يزل على حاله كما هو، لم يتغير فيه شيء!

قطع سيف الصمت الثقيل الذي لفَّهما ونادى على صاحبه الذي رآه يسبح في عالم آخر:

-شوقي.

كان شوقي يهرس حبة ترمس صغيرة بين إصبعيه لينزع عنها قشرتها ويضعها فوق لسانه مستلذًّا بالمرارة وبمذاق الملح اللاذع، بينما يراقب بعينيه السريان البطيء الهادئ لبحر يوسف ورأسه يغوص بعيدًا في

أعماق الذاكرة مستعيدًا سنوات عمره العديدة التي تساقطت خلفه دون أن يشعر.

- نعم.

- هل فكرت في بشاعة القتل؟

- ....

- لا.. لست أقصد القتل الجنائي العادي الذي يحدث كل يوم.. بل أن يصدر أحدهم أمرًا فتتحرك جيوش وتئز طائرات وتقصف قنابلها العمياء التي لا تفرِّق بين امرأة وشيخ، أو بين جندي وطفل. رصاص يفجِّر الرؤوس والأحشاء ويجعلها شيئًا لزجًا تدهسه البيادات والمجنزرات دون اهتمام، الرصاص لا يعرف الفرق بين البشر والشجر والحجر.. لا يعرف الفرق بين الطيبين والخبثاء. إنه يترصَّد الحياة ويتبعها أينما ولَّت.

بدا شوقي لا مباليا، قال وكأنه يتحدث عن لا شيء:

- الصراع موجود منذ بداية الحياة، وسيستمر إلى نهايتها.. أينما وُجد البشر وجد الصراع، وكانت الحروب، وسقط الضحايا.

- لا يا شوقي، مهما كانت بشاعة الحروب وويلاتها.. حروب الماضي لا تقارن بحروب اليوم. قديمًا كانت الحرب ما بين جيشين نظاميين، وضحاياها من المتقاتلين، أما الآن فالحرب التي يسمونها بالحرب العادلة تتم بين أحدث أجهزة روبوت لا تعرف المشاعر، يجلس القادة في غرف عملياتهم المكيفة ويضغطون على أزرار الموت، دون أن يلفحهم غباره الحارق، وبين بشر عُزل يحتمون بجدران بيوتهم متوهمين الأمان الذي لا وجود له. تعلمنا أن الحرب العادلة أن تصد عدوانًا أو تدافع عن وطن أو تسترد حقًّا. الآن كل شيء تغير.. تقطع الجيوش آلاف الأميال من أجل الجحيم. بضغطة من زر تحترق البيوت وتتحول الحياة إلى نار ورماد. هل فكرت يا شوقي كيف ينام بوش؟ كيف يستطيع أن يصدر أمرًا فيقتل آلاف البشر ويدخل إلى

مخدعه الوثير وينام؟! أي دواء اخترعه العلماء يُمكّن عينيه من إغماضهما حتى لا تريا ما خلّفه من دمار وجحيم لبسطاء عزل؟

هز شوقي رأسه بأسى، وزفر هواءً ساخنًا يشبه فحيح أفعى تتألم، وقال:

- من قال إنه يحتاج إلى مخدر لينام؟ حلم الإمبراطورية الجديدة والحرب المقدسة والأيديولوجيات، كلها أفكار تجعله يجد مبررًا لكل ما يرتكبه من جرائم.. بل لعله يدخل إلى مخدعه راضيًا عما فعله نحو تحقيق رسالته السامية لتحقيق العدالة والسلام.

ثم أضاف بمرارة ساخرة:

- رسالته السامية نحو تحرير العالم كما يدعي.

تحدث سيف ببطء وحذر، كأنه غير واثق مما يقول:

- لا.. لا.. لا يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة.. في نهاية الأمر داخل كل منا ضمير حين ينفرد بصاحبه لا يتغافل عما ارتكبه من جرائم.

- يا صديقي.. القتل يتحول عند البعض إلى صنعة يتكسب منها، ولا يجد المرء أي جريرة في ارتكابه.. هل فكرت في الأمر من قبل.. أن يصبح القتل مهنة يقتات بها الناس؟

شرد لحظات وأردف قائلا:

- بل أحيانًا يصبح شهوة، غواية يتلذذ بها البشر كما يتلذذون بمرارة صحن جعة.. العجز أن نهب الأشياء حياة تتحور إلى رغبة عارمة في سلب الحياة من الآخرين. إلى شهوة لا نستطيع كبح جماحها. أحيانًا أشعر أن بداخل كل منا مسحة من هذه الشهوة.

- الرغبة في القتل؟!

تساءل سيف بسخرية بعد أن استشعر أنه ممثل رديء يؤدي دورا لا يناسب ملامحه.

- نعم.

قال شوقي وفي عينيه تعبير حزين، ثم استطرد مؤكدا:

- قد نكبتها، أو نمارسها بصورة لا يستشعرها المجتمع خوفًا من قوانينه، أو انسياقًا مع عاداته وتقاليده.. لكنها تتفجر في لحظة غضب وتطيح بكل شيء.

لم يكن يعي ما يقوله شوقي، أو يشغل رأسه بالبحث عما توارى في كلماته من إيحاءات ربما أراد أن تشير إليه، وأن تلف حول عنقه وشاحًا حريريًا قاتلا.

هل كان يقصد هبة بكلامه؟

ساعتها كان سيف بعيدًا يبحث عن نصيبه في كعكة الشهرة والنجاح والنفوذ بين جدران المؤسسة.

عامان مرًا لم يعتب بقدميه عتبات القصر القديم.. حتى بعد أن أُسند إليه تحرير سلسلة أدبية تصدر عن المؤسسة، لم يفكر أن يستدعي أصحابه القدامى للنشر بالسلسلة ولو من باب الزهو الذي يجعله كبالون يقارب على الانفجار. كان يشغله هدف واحد، أن تفتح له السلسلة بابًا واسعًا بلا انتهاء على علاقات تجعل اسمه متواجدًا طيلة الوقت.

لم يترك ندوة أو أمسية أو مؤتمرًا. رغم ذلك كان حريصًا على تواجده مع جماعته السياسية للنضال من أجل إشهار الحزب السياسي. لم تفته جلسة من جلسات المحكمة التي أعقبت قرار لجنة شؤون الأحزاب السياسية مجددًا برفض تأسيس الحزب القائم على أفكار قومية.

أعطته العاصمة بريقًا سياسيًا لم يكن يحلم به ببلدته حتى إن ظل مصاحبًا طيلة الوقت للدكتور عضو مجلس الأمة السابق وأحد دعاة تأسيس الحزب. فهو يعرف جيدًا أن الدكتور هو كل شيء في الحزب ببلدته، هو وكيل المؤسسين وأيقونته، كان يمر أمامهم في طريقه إلى الحزب، مبتسمًا كعادته، أشبه بسانتا كلوز يحمل في جعبته الدعابات والمناوشات والحب،

ويوزعها على كل من يقابله في الممرات والشوارع الطويلة المؤدية إلى مكانه العالي في قلوب الناس وعقولهم، ولن يستطيع أحد مهما فعل الصعود إلى مكانته. سيظل وحده، ولن يسمح لأحد بالظهور إلى جواره، لما يملكه من كاريزما الزعامة والقيادة التي تجعل الكل يحترمه ويحبه- حتى المختلفين معه- ولا تسمح لوميضٍ غيره يشع إلى جواره.
إن غاب الدكتور لن يكون للحزب وجود.. فهو الذي يملك شقة المقر، وهو من قام بتأثيثها، وهو الذي ينفق على الاجتماعات من دخل عيادته الخاصة وقوت أولاده.
لكن العاصمة أعطت لسيف ناصر الفرصة ليظهر ويلمع ويتداول اسمه بين أعضاء الحزب بالقاهرة والمتعاطفين معه. لم تكن تنتهي جلسة إلا وأعقبها خبر يصحبه تعقيب من سيف ناصر.
كلمات ساخنة لا تخشى سيف الحكومة المسلط على الرقاب، ولا جلاديها الواقفين عند كل باب، مما جعل البعض داخل الحزب يشككون في سيف ناصر، وعلاقته بالدولة التي تجعلهم يغمضون أعينهم عنه، وعن تصريحاته ومقالاته، ويتساءلون فيما بينهم: هل أصبح سيف ناصر رجل الحكومة الذي زرعته بينهم؟
الدكتور نفى الهاجس الذي صرح به أحد المؤسسين:
- إنها حماسة الشباب.. الدولة مشغولة أكثر بحركات الإسلام السياسي وتصفيتها، وتحرص على ترك مساحات لحرية الكلمة يستغلها سيف بذكاء دون أن يزج بنفسه في صراع صريح معها. الحكومة لا تأبه بالصوت العالي طالما لم يتعد الخطوط الحمراء. إنها تمثيلية سخيفة، الكل يشارك فيها، ولن تصل بنا أبدًا إلى تداول السلطة.
حين صدر حكم المحكمة الإدارية العليا بتأسيس الحزب اعتبره سيف ناصر انتصارًا شخصيًّا له.

عاد من المحكمة إلى المؤسسة أولا. كان يريد أن يقول لكل زملائه الذين وجدوا بالمؤسسة أنه وليد مصادفة لا تتكرر، أن العظماء وحدهم هم من تصنعهم المصادفات أو الفرص العابرة، نيوتن صنعته صدفه اقتنصها بدلا من أن يلتهمها، الغيطاني أصبح صحفيًّا كبيرًا بصدفة جعلت محمود أمين العالم يقرأ قصته ويعينه فى مؤسسة الأخبار، كذا ألهمت صدفة المرض روح الإبداع للسياب.

هكذا كان يقول لهم ولنفسه. فلا هو لسع المؤسسة بمقالاته اللاذعة.. أو قرأ أحد اسمه من قبل تحت قصيدة أو ديوان.

بينما أقرانه الذين تعاقدوا معهم ليجمِّلوا وجه المؤسسة تجدهم هناك في الطرقات لتصفح الجرائد وتبادل النميمة التي لا تنتهي.

الآن لا تكاد صفحة أدبية تخلو من اسمه.. وأصبح رئيس المؤسسة يعتمد عليه في كثير من شؤون العمل منذ توطدت علاقته بصلاح خطاب.

***

(2)

يلقي بقناع الشخص المتغطرس إلى تجويف المرحاض، ويشد سلسلة السيفون ليتدفق الماء، ويترك الحمَّام خلفه مُغلّفًا بالضباب

لا تعرف شاهندة السر الذي يجعل زوجها لا يستخدم مفتاح الشقة عند عودته من عمله!

لا يكلِّف نفسه ويضع إصبعه فوق زر الجرس فيغرد العصفور فرحًا، أو يئن أنَّات طويلة متتالية وقاسية. بالكاد يكتفي بأن يمسح بكف يده باب الشقة- فيما يدَّعيه دقًّا دون أن يترك وقعًا أجوف- في انتظار أن تنتفض من مكانها لتفتح له الباب. وهي عادةً تتقبل ثورته المتشنجة لتأخرها الموهوم بفتور. ترى الدم يتصاعد إلى صدغيه من خطوط زرقاء برقبته، ويضرب أذنيه، تلتفت بنظراتها بعيدًا من غير أن ترد بكلمة، تتجاهل ما يقوله وتذهب لتُعد الحمَّام لاستقباله.

كانت تعتقد أنه لم يعد نفس الشخص الذي عرفته رومانسيًّا وخجولا وودودًا، بقامته الرشيقة، ووسامته الحالمة الحزينة. الأيام جعلت منه شخصًا آخر أكثر حدة وانفعالا، يثور لأتفه الأسباب، وفي أحيان كثيرة بلا أسباب أو مبررات، وإن احتفظ بملامحه الهادئة المخادعة.

كانت تُصبِّر نفسها وتقول إن ضغوط العمل كثيرة.. ولابد أن شيئًا يعكر مزاجه، سرعان ما ينزاح إلى الجرف، ويعود يتدفق كنهر بالحب والحنان. لكن الأيام مرت دون أن تعرف كيف أفلتت من بين يديها، ومع كل يوم جديد كانت أمواجه تثور وتعلو وتشتد قسوة. ولم يكن عليها إلا أن تكون

صخرة تصد أمواجه العاتية بلا هوادة.

(لكن حتى الصخور تتفتت يا حاتم)

درَّبت نفسها لدرجة أن أذنيها لـم تعدا تسمعان كلمة مما يردده منذ لحظة دخوله من الباب وحتى خروجه من الحمَّام يلمع كقط مُعتنى به. يُسقط عن جسده العرق المشبع بوسخ النهار، وأعباء الوظيفة، وما التصق به من قاذورات لا تُرى أثناء تفقده لأقسام الشرطة وحجرات الحجز.

يلقي بقناع الشخص المتغطرس إلى تجويف المرحاض، ويشد سلسلة السيفون ليتدفق الماء، ويترك الحمام خلفه مُغلفًا بالضباب. حينها تعرف أن حاتمها عاد. ترقبه يحتضن طفلتيه بحنان، يغدق عليهما من قبلاته ويسألهما عما دار طوال اليوم في غيابه، بينما تتنافسان فيما بينهما أيهما تحكي له أولا.تتنفس شاهندة بعمق وتبتسم برضا وتغادرهم إلى المطبخ لإعداد طعام العشاء.

***

أنَّ العصفور الصامت بغضب أنَّات عصبية وممدودة أفزعت الملاك النائم بعيني شاهندة العسليتين. نهضت فزعة فسقطت المجلة التي كانت تتصفحها- قبل أن تغفو عيناها في وسن لذيذ- من بين يديها على الأرض. عيناها تسبقانها إلى عقرب ساعة الحائط وتسألان عن الوقت بدهشة.

لم تكن تنتظر أحدًا، ولم يعتد العصفور أن يغرد إلا في مواعيد محددة مسبقًا؛ صباحًا لبائع الحليب أو لسائق "البوكس" حين يخبرها أن السيارة بانتظار الباشا، أو بعد اتصال هاتفي من صديق أو قريب أو زميل لحاتم في العمل.. أو جار جاء يقصده ليتدخل في إنهاء مشكلة ألمت بقريب له، أو الذين يأتونه بحاجاتهم وعللهم التي تبحث عن دواء.

أقاربها امتنعوا عن زيارتها منذ وقت لم تعد تحصيه، من يفكر في زيارتها منهم أصبح يتبع ذات الطقوس الرتيبة.

إنْ فكر العصفور أن يخرق عاداته بمساعدة الجارات اللحوحات النهمات للتلصص على حياة الآخرين وهتك سرها فهو يعرف مواعيده جيدًا، ليس من بينها بأية حال موعد عودة زوجها أو تواجده بالبيت.
مع توالي الصرخات الفزعة لعصفورها الحبيس انقبض قلبها، سرت رعشة في جسدها أعاقت حركتها، ولم تعد قادرة على التحرك خطوة من مكانها. لمحت الطفلتين تهرعان إلى الباب. أرادت أن تمنعهما، لكن حنين سبقتها إلى الباب وفتحته.
هبط صدرها وارتفع حين رأت حاتم يدخل من باب الشقة، يميل ناحية طفلتيه ويحملهما فوق ذراعيه ويضمهما إلى صدره.
قبَّل كل واحدة منهما قبلة خفيفة في جبينها وتركهما تتقافزان كظبيتين مرحتين وخطا خطوات بطيئة متعبة ناحية حجرته، بينما شفتاه همستا بكلمة لم تتبين ما هي!
لم يصرخ في وجهها كعادته متهما إياها بالتأخر عن فتح الباب، ولم يركلْ شيئًا اعترضه في طريقه، ودخل حجرته بسكون غاضب محير.
تبعته بحذر تريد أن تتسلق أفكاره، تتسحب إلى رأسه لتعرف ما يدور فيه. لاحظت أنه لا يريد أن ينظر في عينيها، بالأحرى يتحاشى أن تتلاقى عيناها بعينيه فتقرأ فيهما شيئًا لا يريد البوح به.
سألته وشيء ما يُصَعِّد في الصدر قلقًا:
- هل حدث شيء في العمل؟
غمغم بلهجة عابرة:
- لا.
- أُحضِّر لك الحمَّام؟
- لا .. اتركيني بعض الوقت وأغلقي الباب خلفك.

***

كل شيء يخرج الآن من غرفته المغلقة ويمثل أمامه، جلجلت في رأسه أنَّات وعَبرات طافحة بصخب وضجيج يختلط بصرخات مكلومة.
طفا في نفسه حزن ثقيل مباغت، حاول هدهدته بحوار داخلي ممدود: هل كنت بحاجة حقا إلى الذهاب لرئيسك وتقديم اعتذار- مرفوض مسبقًا- أم تراك كنت تبحث عن مبرر أخلاقي لتسوقه لنفسك أو تسوقه لسيف ناصر لتبرئ ساحتك أمامه؟
سيف ليس بحاجة إلى تبريرات، إنه مغموس في نفس اللعبة، كل منا في قرارة نفسه يعرف كذبته الصغيرة، كلانا يتخبط كطير أعمى داخل جدران زنزانته ولا يريد أن يعترف بالحقيقة، الزنزانة التي تطال الوطن كله، تنعق طيورها في الظلام بلا انقطاع محاولةً التخلص من الخيوط التي تلتف حول بعضها البعض دون فائدة، فلا تملك إلا أن تنهش كل ما تطاله أنيابها بقوة اليأس.
- لسنا بعيدين عن الافتراس إذن يا سيف؟!
سيقول كلاما هشًّا هلاميًّا كالذي يجيده المثقفون للهروب من الواقع.. عن الحرية وديمقراطية الدهماء، ثم يلقي بالمسئولية كلها على نقص الوعي عند الناس وانتشار الأمية الثقافية والسياسية. سيرتشف جرعة من فنجان قهوته ويتكلم بثقة الممسك بالحقيقة ويقول:
(لأننا شعب متدين بفطرته ما أسهل أن يُضحك علينا بالتمسح بالدين.. إن تركتهم الدولة وسيطر هؤلاء على الأمور سنعود إلى الخلف مئات السنين.. التجربة خير شاهد، انظر ماذا فعلوا بالجزائر والسودان وغزة عندما آلت إليهم السلطة؟).
تعرف جيدا أن الانتخابات ستمر بك أو بغيرك، ستتناقل وكالات الأنباء الصور ويخرج المسئولون والمعارضون يقولون كلاما كبيرًا عن الديمقراطية، وحرية التعبير، ونزاهة الانتخابات، والتزوير الفاضح، والانتهاكات العلنية،

ويلقون الاتهامات والسباب في وجه بعضهم البعض، وحين تنطفئ أنوار الاستوديوهات يعود كل شيء إلى نقطة الصفر ويعود النهر إلى سريانه البطيء. ساعتها يمكنك أن تغتسل من كل الوساخات التي علقت بك وتواصل حياتك كالآخرين، دون معارك ضارية من أجل أمنيات مبتورة!

فلِمَ إذن يا حاتم كنت تطلب الاعتذار؟

هكذا كان يحدث نفسه وهو يمد يديه بورقة الاعتذار لرئيسه. كان شيء ما بداخله يدفعه للتراجع.. يسحب الورقة ويطويها ويضعها في حافظته.. ويدع الأمور تسير كما قُدر لها، لكنه لم يستطع.

ربما لاحظ رئيسه تردده فأسرع إلى التقاطها ووضعها أمامه.. وشرع يقرأ حروفها بفضول الصياد لقنص فريسته والتهامها. وربما وجد في الورقة تسلية يفتقدها في أيام تحتشد بالأحداث القلقة الكبيرة التي يجدها في كل ما حوله، ولا يتحمل مسئوليتها أحد آخر بخلافهم.

في النهاية ينتهز الجميع أي فرصة أو خطأ يقع فيه ضابط صغير ليشنوا حربًا مستعرة على الوزارة ورجالها.

بمجرد أن مر بعينيه فوق حروفها ضحك باستخفاف أسقط عن حاتم كل الأردية الكاذبة التي حاول أن يستتر خلفها. شعر حاتم حينها أنه تلميذ خائب يقف أمام مُدرسه دون أن يحفظ شيئًا من جداول الضرب والطرح والقسمة. وداهمه عريٌ مؤلم، استمع لأناته وحده.

- هههههههه.. أنت تهرج يا حاتم.. البلد في نار والداخلية كلها في طوارئ.. وأنت تطلب الاعتذار؟

ضغط على الحروف الأخيرة مع حشرجة في صوته نتيجة الإجهاد المستمر في العمل وأطنان التبغ التي لا يتوقف عن إحراقها.

- يا أفندم أنا لا أطلب إلا أن أذهب إلى أي مكان آخر، لماذا بلدي بالذات وفي هذا الوضع؟

- هم من يختارون يا حاتم.. نحن مجرد قطع شطرنج تتحرك في لعبة كبيرة، وعلينا تنفيذ الأوامر كما هي.. هل تظن أن عساكر الشطرنج بإمكانها أن تسأل الملك عن جدوى الانتقال من رقعة إلى أخرى.. إنها مجرد قطع صماء بكماء، لا تملك إلا إطاعة الأوامر، والتحرك وفق إرادة الملك وحده.

صمت برهة، نقر بقلمه خلالها على زجاج مكتبه، ثم تنهد تنهيدة طويلة واستطرد قائلا:

- تعرف أنني أحبك.

- ....

- ولأنني أحبك وأقدر تفانيك في عملك، سأعتبر إنني لم أقابلك اليوم ولم أسمع منك شيئًا، ولا تنسَ أن ملفك.....

عاود الصمت للحظة- ظن فيها أنه سمع صرخة حادة لم يميز من أين أتت.. أو ظنها تنبعث من تليفزيون بأحد المكاتب- قبل أن يكمل كلامه:

- رغم ذلك يحسدك زملاؤك على مكانك وحركة ترقياتك. يا حاتم ما أسهل أن يخرج ملفك من درج المكتب إلى السطح، ساعتها ستجد نفسك على المعاش مع أول حركة تنقلات.. هل تفهم قصدي؟!

نهض حاتم من فوق سريره واقفًا، يتحسس بيديه موضع السوط الذي ارتفع ليسقط على قلبه في وحشية، رأى صورته تتشوه وتتمزق إلى قطع صغيرة أمام عينيه دون أن يستطيع أن يفعل شيئًا. لم يكن ينقصه أن يفتح أحد فوهة الحريق القديم في وجهه من جديد، ليشتعل ويحاصره من كل اتجاه.

اتصل به سيف ناصر وقال إنه بحاجة إلى مساعدته في تدبير مكان بعيد لإنسانة عزيزة عليه.

حين رآها كانت بعض حطام بعينين حالمتين!

لم يشأ أن يسألها عن شيء، أعطاها نسخة من مفتاح الأستوديو الخاص به، وقال إنه أشبه بعلبة لتخزين الأسماك الميتة وحفظها، كان عبارة عن شقة صغيرة بشارع مقبل ببني سويف، يقصدها يوم وليلة في الأسبوع.. يغلق تليفوناته ولا يعرف أحد طريقًا إليه.

يكتفي بأن يقول لزوجته إنه في مأمورية ليحصل على تصريح بالغياب من حياته الرسمية ويعانق ريشته.

قال لها:

- خذي راحتك فلن يزعجك أحد.

قالها وكان في اعتقاده أنها ستقضي يومًا أو يومين وتذهب إلى حال سبيلها، حتى إنه نسي في زحمة الحياة أن أحدًا يشغل عالمه الخاص البعيد.

حين فتح باب الأستوديو لم يجد أثرًا للفوضى التي يخلفها هناك وباتت من معالمه.. كان يتلمس الخطوات كأنه يتعرف على المكان لأول مرة.

عندما دخل مرسمه وجده مغمورًا بوهج أنثوي، ووجدها مستلقية على الكنبة كقطعة من لوحة الملاك النائم.. طاف بعينيه على اللوحات التي حرصت على تعليقها فوق الجدران، غمس ريشته في الألوان وظل يعبث بها حتى تجسدت أمامه بكامل براءتها.

قامت فزعة على وهج أنفاسه، تعيد ترتيب فوضى جسدها ولملمة شتات ثيابها وروحها من أجل أن تخفي توترها.. كانت نظراتها تتسم بالترقب:

- أنا آسفة.. لم أقصد أن أخترق خصوصيتك.

ثم أشارت إلى اللوحات المعلَّقة فوق الجدران وقالت:

- لكن أعتقد أنها هكذا أفضل.

لم تشر إلى اللوحات التي جمعتها وراكمتها بعضها فوق البعض، وغطتها بملاءة سرير كبيرة إلى جوار السرير الضيق الذي يحتل حجرة النوم.

حين دخلت إلى الأستوديو لأول مرة ووجدتها تتناثر في كل مكان أرادت أن تهجر المكان وتغادر عائدة إلى قبوها القديم، قالت في نفسها: كيف يرونني وأنا أسكن بين كل ذلك العري؟!

رمت شعرها وراء ظهرها، وضحكت دون حساب، قائلة بصوت مسموع:

- قلة أدب.

لكنها عادت وقالت إنها ستبقى ليوم أو اثنين حتى تدبر حالها بنفسها.. جمعتها كلها وغطتها بملاءة كبيرة.

حين شاهدت باقي اللوحات لم تتخيل أنها لنفس الفنان.. قربت بين المكان وقلبها، كانت تنبض بوجع وضياع كالذي تعيشه تمامًا.. رمادية الألوان لامست رمادية المشاعر التي تعيشها وتلاقت طفولتها مع طفولة اللوحات التي تبحث عن أحضان لا تجدها حين تضطرب وترتعش أطرافها وتموء كقطط وحيد يبحث عن دفء وأمان في ليلة ممطرة.

حين سألها عن بقية لوحاته التفتت بوجهها بعيدًا، قالت وهي تعضّ على شفتيها وتنظر إلى الأرض:

- هو دا فن؟

- أي فن تقصدين؟

- العري والرذيلة.

سألها متعجبًا:

- إن كان الجسد خطيئة، فِلمَ خلقنا الله من روح وجسد؟!

أحجمت عن الإجابة للحظات، ثم قالت خجلة:

- ل.. لا.

وأردفت مستفهمة بنظرة أسيانة:

- لكن العري......

ثم توقفت صامتة ولم تكمل.

- العري يطهرنا من مشاعر الزيف التي تحاصرنا.

كان يحادثها ويتمنى أن يتجرد من زيفه أمام أبيه قطعة قطعة.. أن يخلع وجه الممثل الذي يرتديه ويعيش طبيعته حرًّا فوضويًّا، لكنه في نهاية الأمر حاتم الحقيقي الذي لا أحد يريد أن يعرفه كما هو.

كل واحد منهم يريد أن يشكله حسب هواه.. يحتاج ألف وجه ليتعايش في عوالمهم الشمعية، بينما وجهه الحقيقي لا أحد يريد أن يراه أو يعترف به.. لن يتفهم والده كل ما يدور من حوله.. سينسى أن ابنه كبر وأصبح يقود جيشًا من الضباط وضباط الصف والعساكر.. سيتخيله نفس الولد الصغير ببنطلونه الأزرق وقميصه الأبيض الذي يحمر وجهه لأتفه الأسباب ولا يستطيع أن يقول له: لا.

علاقة غايتها ومنتهاها أن يأمر الأب فيطيع الابن، علاقة منقوصة قائمة على مصالح وأهواء طرف على حساب آخر، لابد أن تنتهي بالفشل.

لن يستوعب أن الابن خرج من طوع أبيه إلى سلطة أب أشد قسوة.. لا يسمح لأحد بالخروج عن صف النظام ولو للحظة إرضاء لشيخ كهل، ما زال يبحث عن هيبة قديمة ودور مفقود من عصر ذهب وولى ولن يعود.. في بلدة لم تعد تلك القرية التي يعرف أهلها بعضهم بعضا.. ويحترم الصغير فيها الكبير.

(أي وهم تعيش يا أبي؟.. بلدنا لم يعد فيها مكان لأحد، بخلاف الذين اشتروها، وأصبحت ملكا لهم.. وبتنا فيها غرباء. نعم يا أبي.. لم يعد لنا أيضًا فيها مكان، بتنا مجرد عصا تفرق متظاهرين أو تجمع مهللين..!)

سيحاسبه شوقي على المبادئ التي يرددها الجالسون على المقاهي، أو في طيات قصيدة لشاعر مجهول لن يعرفه أحد إلا بجملة ثورية عن حرية قرأ عنها في كتاب، أو صورة متمردة يلهب بها حماس جمهور سرعان ما يفتر.

من أجل مزيد من التصفيق والتشجيع، وكأنه لا يعلم أن البطل لا يحب أن يقتطع أحد من جمهوره ولو بضعة مصفقين لا يزيد عددهم عن عدد أصابع اليد الواحدة، وأن يستأثر وحده بالمشاهدة كاملة.

لف حول نفسه كمغزل، كأنه يبحث عن شيء لا يعرف تحديدًا ما هو فشعر ببعض الدوار وكاد يسقط بشكل مفاجئ، تماسك في اللحظة الأخيرة واستند إلى الجدار حتى استعاد توازنه.

فك أزرار قميصه بينما عيناه تصعدان في فضاء الغرفة فوق خزانة الملابس وتستقران على حقيبة سفر رقدت واستكانت هناك منذ فترة.

شد كرسيا من أمام التسريحة ووضعه إلى جانب خزانة ملابسه وصعد فوقه وأنزل الحقيبة.

تراب ناعم عفَّر قلبه ووجهه فسعل.

مضغ كراهية لشيء ما، وقال بصوت بطيء:

- اللعنة.

تكدست الحقيبة بالأوراق والقصاصات والدفاتر كما تكدست الذاكرة بالحوادث والوجوه والأسماء.

جلس يقلب سنوات وذكريات تراكم بعضها فوق بعض أطلت برأسها بعد أن بقيت حبيسة هناك دون أن يشعر بها.

اشتم رائحة أيام قديمة تفوح من الحقيبة وألبومات الصور الأبيض والأسود، حدث نفسه قائلا:

- ليت الأمور كانت بوضوح الأبيض والأسود؟

تطلع بأسى إلى السنوات والذكريات المركونة. بدا كأنه ينظر إلى شريط سينمائي طويل، تداعت الصور أمامه، تتقافز من جحورها وتخرج لسانها له.

***

قفص الاتهام بأذرعه الطويلة التي قيدت كل مضغة في جسده، منصة المحكمة ينتصب خلفها ميزان عدالة لا تتساوى كفتاه، وكيل النائب العام يكيل الاتهامات بلا رحمة، نظرات التشفي في عيون بسطاء احتشدت بهم قاعة المحكمة، فلاش كاميرات ترك الحقيقة غائبة في بقعة مظلمة وظل أسير الظمأ إلى انتقام أعمى.

شوقي وحده كان يصدقه.. شعر للحظات بأن شيئًا يدفعه كي يفر من الذين يندفعون بنصالهم نحوه، دق بابه، وأمسك بذراعيه وهزه بعنف.. وسأله:

- هل تصدق يا شوقي أنني أقتل أحدًا؟!

- ....

- ألست واحدًا منكم.. هل يمكن لأحدكم أن يقتل، فلِمَ تصدقون ما يرددونه؟

مَن مِن كل هؤلاء يعرف الحقيقة، من منهم يعرف أنك مجرد ضابط صغير لم يمض على وجوده بالقسم إلا عدة أشهر.. كل ما عليه أن يشاهد ما يحدث حوله بينما يلهو بأصابعه ويعبث بها كطفل صغير، ويوقع بعض الأوراق والمحاضر الإدارية التي لا قيمة لها دون أن يتدخل في شيء. جلس عند حافة المقعد، يحدق في المرايا وانعكاساتها، ويستعيد وجوها شيطانية متآمرة، تمرق من أمامه وتعود.

أفاق على الباب ينفتح عن آخره بعد أن قام أحدهم بدفعه.. ارتبك حين سمع صوت عمر زاهر بالخارج.. وحده من بين ضباط المباحث اعتاد أن يدفع الأبواب بقدمه بطريقة رعاة البقر في أفلام الكاوبوي الأمريكي.

نهض واقفا ليترك له مكانه قبل أن يدخل عليه الحجرة، لكنه كان أسرع من تفكيره.

وجده أمامه يستند بيد على المكتب ويشير له بالأخرى أن يبقى كما هو في مكانه، وخلفه تجمع عدد من الرقباء والأومباشية.

- أنت نبتشية النهارده؟

سأله عمر زاهر وكأنه يوجه له اتهامًا ما.

زاغت عيناه تتفحصان العساكر الذين يحيطون به، أو ربما هربًا من مواجهة عيني عمر زاهر وصلفهما.

- أيوه يا باشا.

اصطنع عمر زاهر ابتسامة باهتة قائلا:

- طيب ربنا معاك.. أنا كان عندي مأمورية صغيرة.. عملتها وها أروح.

لم يكن حاتم يعرف شيئًا عن مأمورية عمر زاهر، كما لم يعرف شيئًا عما يدور في القسم، أو في بيت الحاج فهمي، أو في حياة زوجته وأولاده وأصحابه، مكتفيًا بالحياة على الهامش من كل شيء.

لم يخطر بباله أن يقطع عمر زاهر إجازته ويحضر إلى القسم، ويقف أمامه مستندًا على مكتبه على نحو مزعج وهو يدخن في وجهه متعمدًا، وإلا ما كان ليجرؤ على الجلوس في مقعده.

يعرف جيدًا كم يكره عمر زاهر أن يرى أحدًا جالسًا في مكانه، أيًّا كان قدره.. كان يعتقد أنه خلق لهذا المقعد الذي يناسب مقاسه وحده.

حين زار مساعد مدير الأمن الجديد- نفسه- القسم، لم يتحمل أن يراه يجلس في مكانه.

كان رجلا ضخمًا، أصلع الرأس، أحمر الوجه، بمجرد أن دخل المكتب ركض زاهر لمصافحته وتبادل المجاملات السخيفة والابتسامات المصطنعة كببغاء أعمى، لكن ما إن جلس مساعد المدير على مقعد عمر زاهر وطلب يوميات وأوراق القسم لمراجعتها حتى تبدلت ملامح زاهر واختنق وجهه.

صاح في الصول جلال الذي هرع ليحضر الدفاتر وطالبه بالانتظار في مكانه، وقال إنه سيحضرها بنفسه وسط استغراب الجميع.

حين غادر الحجرة سمعوه ينادي بعصبيته المعروفة:

- يا جلال الزفت.

فهرع جلال خلفه ملبيًا النداء، ثم عاد جلال وحده ومعه الدفاتر.

أما عمر زاهر فظل يروح ويجيء بين حجرات ومكاتب القسم دون هدف، حتى انتهت الزيارة وعاد إلى مقعده.

فما بالك بشعوره حين يجد ضابط مباحث صغيرًا كحاتم فهمي في مقعده؟!

حاول حاتم التخلص من السحابة الثقيلة التي خلفها عمر زاهر بزيارته للقسم، طلب فنجانًا من القهوة.. وسأل الرقيب الواقف بالباب عن سير الأمور بالقسم.. المحابيس، المحاضر، النبتشية، وتمام الحجز.

الرقيب ابتسم وقال:

- الأمن مستتب يا حاتم بيه.

- خلاص.. اقفل الباب ومحدش يدخل عليا.

***

(3)

يتمكن من فوق كرسيه الذي لا يتوقف عن الدوران، من رصد كل شاردة وواردة بالمؤسسة

علاقته توطدت بصلاح خطاب.. الرجل القوي بالمؤسسة، فتح له كل الأبواب المستعصية.. حتى بعد أن ترك المؤسسة ظل يدعمه بكل طاقته، يكفي أنه السبب وراء تولي سيف منصب الرئيس.

الكل يعلم أن إعلان شغل الوظيفة الذي نشرته الصحف مجرد إجراء روتيني لإسكات أصحاب شعارات الحق في تكافؤ الفرص ومعايير الشفافية، وأن اختيار الرئيس قرار سياسي بالدرجة الأولى.

لم يعتقد أحد أن تقديم سيف ناصر أوراقه بالمسابقة إلا ضربًا من ضروب الجنون التي تنتاب مراهقي السياسة والهوى.

ما هو تاريخه الذي يستند إليه؟!

لا شيء.

الكل يعرف أن المرشح الأول لمنصب الرئيس هو إيهاب فخري.. قضى عمره كله بالمؤسسة، حتى أصبح نائبًا للرئيس. وكلما خلا منصب الرئيس تقدم بأوراقه.

يحفظ المؤسسة حرفا حرفا.. كل موظف بها يعرفه بالاسم.. ويعرف كل كبيرة وصغيرة عنه. يتمكن من فوق كرسيه الذي لا يتوقف عن الدوران، من رصد كل شاردة وواردة بالمؤسسة، يحتفظ في درج مكتبه بأخطائهم الصغيرة التي دسها بين أوراقه ليلوح بها وقت الحاجة في وجوههم.

الكل يلجأ إليه عند أية مشكلة، فهو وحده يعرف طريق الحل.. يحفظ قوانين المؤسسة ولوائحها.. وكيف تسير الأمور بها.

لو لم يعرف الرئيس كيف يكسبه إلى صفه ستتجمد المؤسسة، وتشل حركتها وتتوقف عن العمل.

في كل مرة يتخطاه منصب الرئيس يكتب استقالته، ويضعها أمامه..

كثيرون من الأصدقاء نصحوه بالاستقالة والتفرغ للكتابة.

اسمه ككاتب سيناريو يضمن نجاح أي فيلم.. لو تفرغ للكتابة سيجني من ورائها أرباحًا مجنونة.. لكن لا أحد منهم كان يعرف أن المؤسسة لا تمثل له مجرد وظيفة.. كانت أشبه بمعشوقة مستعصية أضاع عمره كله من أجل الإمساك بلحظة دافئة تجمعه بها.

لحظة مجنونة تمزج بين النور والماء، خفَّاقة كأول الحب، ترمم ثقوب سنوات العمر الطويلة بحنو بالغ.

وكلما ظن أن لحظته اقتربت تنفلت من بين يديه كفاتنة لعوب ملعونة.. فيكتب استقالته ويضعها أمامه بعد أن يطلب فنجانًا من القهوة.

يظل يغلق عليه باب مكتبه وتليفوناته ولا يغادر المؤسسة إلا بعد أن يغادرها الجميع. حينها يسمع صوتها تناديه من جديد.. يطوي ورقته ويضعها في درج مكتبه ويصحب نعومة الأسى معه في طريق عودته إلى بيته.

لا يذهب إلى المؤسسة ليومين أو ثلاثة!

حينها يكون الرئيس الجديد تسلم مهام منصبه، وكلما طرح سؤالا على العاملين بالمؤسسة.. تكون الإجابة واحدة في كل مرة:

- إيهاب فخري.. لا شيء يسير في المؤسسة بدونه.

هذه المرة يعرف أنها فرصته الأخيرة للحاق بمحبوبته اللعوب.. لم يبق من السنوات الوظيفية ما يجعله يلحق بفرصة أخرى، ويعرف أن الطريق إلى قلب محبوبته يجب أن يمر بباب الرضاء السياسي.

من أجل ذلك سعى للالتحاق بلجنة السياسات بالحزب الحاكم ليكون

قريبًا من دائرة الرضاء السياسي.
من ناحيته استخدمه الحزب في الرد على هجمات أقباط المهجر الشرسة ضد النظام باعتباره قبطي وطني، يخرج وقت الحاجة إلى وسائل الإعلام ومراسلي وكالات الأنباء ليردد على أسماعهم ما تحب الحكومة أن تقوله!
كل ذلك جعله المرشح الأول بلا منازع.. لم يبق له سوى عامان ويحال إلى المعاش، لن تبخل عليه الدولة بمكافأة صغيرة.
لم يطمح للحصول على منصب وزير ليستعصى عليه المنصب كأحد المستحيلات.
سيف ناصر صارح صلاح خطاب بمخاوفه.
قال إن المناخ السياسي كله يصب في صالح إيهاب فخري.. ضغوط أقباط المهجر وأمريكا والدول الغربية يجعل الدولة حريصة على اختياره للتغطية على انتهاكاتها لحقوق المواطنة.
ضحك صلاح خطاب وعاد بظهره إلى الخلف وتطلع إلى النيل من شرفة شقته وقال:
- حاول أن تنسى الشعارات التي حفظتها في الحزب.. تلك الجعجعة لا تفيد في شيء. ثم شرد بنظره بعيدًا وهو يقضم سيجاره الكوبي ويشعله، قبل أن يكمل:
- ليس فقط الشعارات.. من الأفضل أن تترك الحزب نفسه.. ودع أمر إيهاب فخري لي.. الطائفية سلاح ذو وجهين كلاهما مر.. أحيانًا تستخدم لصالحك، كما قد تستخدم ضدك. أنا سأتصرف.
لم تمر أيام إلا وكان ملف إيهاب فخري أمام جهات أمنية عليا.. ممارسات وصفها البعض بأنها طائفية، قيل إنها حدثت في بدايات عمله بالمؤسسة ولم يسمع عنها أحد، وآخرون أكدوا أن أحدهم دسها في ملفه الوظيفي بعلاقاته مع كبار قيادات أمن الدولة.

هكذا ترددت الأقاويل بعد الإعلان عن اختيار الرئيس الجديد.. وسط علامات التعجب الكبيرة التي ارتسمت على الوجوه.

لم يرد في ذهن أحد من العاملين بالمؤسسة شخص آخر بخلاف صلاح خطاب وراء تسريب الملف الأمني لإيهاب فخري والصعود اللا منطقي لسيف ناصر وانقضاضه على كرسي الرئيس.

دائمًا صلاح خطاب يقف وراءه، دون أن يعرف أحد السر وراء علاقتهما الحميمة.

حين لم يجدوا مبررًا معقولا يجعل سيف يحظى بثقته، تناقلوا أخبارًا وحكايات عن لقاءاتهما الكثيرة بالمؤسسة وخارجها.

فتحوا صفحة صلاح خطاب ورددوا أسئلة خبيثة عن أسباب عدم زواجه.. تساءلوا عن السر الذي جعل إدارته بلا امرأة واحدة؟!

دائمًا كل موظفي الإدارة من الرجال الأشداء.. يعلن عن مسابقة لتعيين موظفين جدد ويجلس بنفسه مع اللجنة المشكلة لاختيارهم.. حتى سكرتاريته الخاصة يختارهم من الرجال.

أحدهم قال إنه رأى سيف بصحبة صلاح خطاب يقصدان أحد الفنادق التي يرتادها الشواذ.

ظلوا يبحثون وينقبون في أسباب بعيدة ولم يتخيل أحد أن زملاءه بالإدارة كانوا وراء علاقته الحميمة بصلاح خطاب!

حينها لم يكن مر على تعيين سيف ناصر بالمؤسسة سوى عدة أشهر، وفوجئ باستدعاء رئيس الأمن بالمؤسسة له.

كانت إدارة الأمن بالمؤسسة إدارة وليدة، لا أحد يعرف لها دورًا بالتحديد. مكتب معدني حكومي يرقد هناك بحجرة صغيرة بالطابق السادس، يسكنه رئيس الإدارة وموظف صغير أتى معه، لا يعرف أحد إن كان سكرتيرًا للرئيس أم عاملا بالمكتب، أم موظفا كتابيًّا؟

أم كل ذلك معا؟!
أما التوصيف الوظيفي فكان أكثر غموضًا.. مسئول أمن!
لم يعرف هو نفسه معناه.
وماذا عليه أن يعمل خريج كلية الحقوق في إدارة الأمن؟
لم يكن عليه إلا الوقوف بطرقات المؤسسة ومتابعة المترددات على المكان ومراقبة رجرجة مؤخراتهن المكتنزة من بعيد، بعد أن يُحضر الجرائد اليومية وإصدارات المؤسسة للرئيس، ويطلب من عامل البوفيه أن يحضر له قهوته السادة.
كثيرون احتاروا في أمر الإدارة الجديدة، هل هي عودة إلى الرقيب العسكري الذي عينته قيادة ثورة الضباط الأحرار بمؤسسات الدولة.. أم إنها إدارة اخترعتها الدولة لتكافئ رجالها المخلصين بعد أن يحالوا إلى التقاعد، أم أنها إدارة جديدة زرعها حبيب العادلي في الجهاز الحكومي ليمسك بمفاتيح الدولة كلها ويحتفظ بها في درج مكتبه بلاظوغلي.
بمجرد أن علم سيف ناصر بأمر الاستدعاء زارته شياطين الهواجس، وتساءل في نفسه إن كان للأمر علاقة بنشاطه السياسي وعلاقته بالدكتور؟
لم يكن حينها عرف طريق جماعته السياسية بالعاصمة بعد.. كان مشغولا باكتشاف عالمه الجديد وتثبيت مكانه بالمؤسسة أولا، أما الدكتور فلم يره أو يتصل به منذ وطأت قدماه عتبات القاهرة.
أحد أصحابه بالشئون القانونية همس له أن زملاءه بالمكتب قدموا شكوى ضده بخصوص ميزانية النشاط المسئول عنه لإدارة الأمن.
- وصلتنا نسخة منها أمس.
تلقفها من بين يديه.. حفظ كل حرف فيها قبل أن يعيدها إلى صاحبه، ثم تركه مسرعًا، بينما الأفكار تتدافع إلى رأسه كجماعات تتزاحم وتتجادل وتتعارك للوصول إلى حل للخروج من المأزق.

حسام حامد إذن وراء الشكوى؟.. لم يرد على رأسه اسم آخر.
لمجرد أنه أصدر كتابًا عينوه سكرتيرًا لتحرير إحدى سلاسل النشر، موقعه الوظيفي جعله ينسج شبكة علاقات واسعة بالأدباء ومحرري الصفحات الأدبية من أجل نشر كتاب ضمن السلسلة، أو إدراج أسمائهم في كشوف لجان القراءة وإجازة الأعمال من أجل مكافأة مالية تعيسة، ورغم ذلك يحقد عليك ولا يرضيه خطوات السلحفاة التي تخطوها بقاهرة المعز.
لن تستمر هنا يا سيف إلا إذا امتلكت عصا وجزرة.
لكن من أين لك بهما؟
كان حوار ممتد يدور في رأسه ويستولي على جوارحه وأفكاره، لم يفق منه إلا في مطبعة المؤسسة.
صحب معه عددًا من الكتب التي يشرف على إصدارها حسام حامد واتجه بعدها إلى موقف الفيوم.
كلمات ترحاب شحيحة تبادلها مع شوقي، ثم طلب منه أن يصحبه إلى الشيخ إخلاص.
- ما الأمر؟
سأل شوقي باستغراب.
صاحبه الذي غاب لأشهر عاد دون أن يقول كلمة عن مؤسسته الثقافية وعمله هناك، يسحبه من يده لمقابلة الشيخ إخلاص الذي يصفه الدكتور وأصحابه بالفاشست الصغير!
- ترى ما الذي فعلته بك قاهرة حسن البنا والتلمساني يا صديقي؟
- ستعرف كل شيء هناك؟
سألا على الشيخ إخلاص ببيت العائلة المتهدم، لكنهما لم يجدا أحدًا هناك، دقَّا باب أحد الجيران، فأخبرهما أن الشيخ بنى بيتًا جديدًا على الطريق بجوار مسجد قباء.

كان سيّف يتعجب حقًّا.. كيف يعيش الشيخ وأقرباؤه في حجرة ببيت متهدم لا يتسع لأسرة واحدة، فما بالك بعدد من الأسر؟!
تدافعت البيوت أمام عينيه كشيء عابر يمر من نافذة قطار دون أن يعني له شيئًا وهو يلهث للوصول إلى الشيخ إخلاص.
لم يعرف شوقي سببًا للغرابة التي تتبدى في تصرفات صاحبه، صمته الذي يخبئ خلفه قدرًا كبيرًا من الغضب والقلق والغموض.
طاوعه بريبة المتشكك والمتلهف لمعرفة السر الذي عاد بصاحبه إلى شوارعه القديمة.
ظل يسير خلفه في محاولة للحاق بخطواته الأسرع دائمًا.
بمجرد أن لاح مسجد قباء أمامهما بالجهة المقابلة، قطع الطريق عابرًا إلى الجهة المقابلة غير محترز للسيارة التي مرقت بجواره واحتكت بحقيبته السوداء المعلقة بكتفه الأيسر، أو بسباب السائق وتحذيرات شوقي الذي تسمَّر في مكانه.
سأل أحد المارة، فأشار له ناحية البيت.
وضع يده على الجرس الذي أَنَّ بعنف، ولم يتوقف إلا عندما سمع صوتًا من أعماق البيت يقول:
- مين؟!
- الشيخ موجود؟
لحظات رفع فيها عينيه ناحية واجهة البيت الذي ارتفعت طوابقه الأربع عاليا ترسم علامة تعجب كبيرة عن الكيفية التي جعلت الشيخ الذي كان عاجزًا عن استئجار شقة بالمساكن الشعبية ليسكن فيها مع أولاده بدلا من الحجرة التي كانت تؤويهم مع عائلة بأكملها.. الآن أصبح يمتلك بيتًا بأربعة طوابق تزيد تكلفته عن راتب الشيخ لو تم مضاعفة عمره الوظيفي لعشرات المرات؟!

بعدها انفرج الباب عن ابن الشيخ ودعاهما للدخول.
- اطلعوا للشيخ في الدور الرابع.
لم يدعه يكمل الجملة إلا وكانت خطواته ترتقي درجات السلم.
إذا أراد الصعود فعليه أن يصعد درجات السلم في خطوة أو خطوتين، دون أن يعيقه عائق.
الآخرون بقفزة واحدة يصعدون البرج.. يملكون سماوات القاهرة البعيدة ويلمسون نجومها بأيديهم.
على مقربة من الشيخ جلس يمسح العرق والغبار والغضب عن جبهته، ويرسم ابتسامة فاترة على وجهه مع كلمات الترحاب المقتضبة.
كان يضيق بالزوار من الرجال والنساء بنظراتهم الكسولة المنكسرة الذين توافدوا على حجرة الشيخ يبحثون عن ذيول الأمل لمواصلة الحياة.. نفس الوجوه المتعبة التي تبحث عن طوق نجاة ولا تجده.. تكدّر قليلا، وشعر بغصة داخله قللت من حماسه، تجاهلهم وتسلل بعينيه بعيدًا إلى الصور المعلقة على الجدران، صورة للشيخ بملابس السجن الزرقاء، ملصق للمصحف الشريف يتعانق مع سيفين متقاطعين، وآخر لعبارة (الإسلام هو الحل)، وآية قرآنية في برواز قديم مُذَّهب.
أفاق على صوت الشيخ ينهر أحدهم بقسوة، حين تفحصه وجد حركات عصبية غير طبيعية على وجهه وشفتيه اللتين تحركتا دون إرادة من غير أن تقولا شيئًا.
تجتاح جسده كله رجفة شديدة وهو يحاول الاستغاثة بمرافقيه الذين وقفوا على مقربة منه ينتظرون أوامر الشيخ، كل ذلك جعل شعورًا من القلق يتلبسه تجاه ما سيحدث.
حينها نظر ناحية شوقي الذي وضع كفه على فمه وبادله النظرات الحائرة نفسها.

- طالما لم يخرجوا من جسده بإرادتهم، سنخرجهم بإذن الله بطريقتنا.
هكذا قال الشيخ بصوت عالٍ زرع الرهبة في قلوب الحاضرين.
مال بجسده وأخرج حبالا سلكيه وسوطا وعصا غليظة من تحت الكنبة وناولهم لأحدهم، ثم قال بنبرة تومئ عن عنف حقيقي وطقوس مهيبة قادمة:
- انتظروني بالأسفل.. سأنتهي من بعض الأمور وأنزل لكم.
حينها صرخ المريض صرخة مدوية أفزعت كل الموجدين بالحجرة.. حاول التملص من بين أيدي الممسكين به.. دون فائدة.
الممسك بالعصا والسوط والحبال تحرك بتثاقل وقال ببطء وحذر، بينما يخالج صوته رنة حزينة شعورًا منه بالذنب:
- هتضربه؟!
- لن يشعر بشيء.. إذا لم يخرج عفريته قبل أن أنزل لكم، فسأخرجه بالقوة.
حين عبروا من عتبة الباب، التقت نظراتهما فانقبض وجهه، قال شوقي وهو يتلبسه شعور بالخزي والأسى:
- من الواضح أنه مريض ويحتاج إلى طبيب نفسي.
- طبعا.
قال الشيخ إخلاص بتعبير محايد تقريبًا، بينما هز رأسه مؤيدًا رأي شوقي:
- لا تخافا.. لن أفعل له شيئًا.. لكننا أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم. هم أهلنا ورجالنا. إن أغلقنا أبوابنا في وجوههم، لن يعودوا إلينا ثانية.
لا يعرف سيف سر غبطته التي استشعرها حين سمع كلمات الشيخ الأخيرة.. تأرجحت في رأسه أفكار باهتة عن تشكيل الاعتقادات والإيمان بها.. ووجد في كلماته شيئًا ما يقربهما معًا.

أما شوقي فرأى أن الكلام في تلك اللحظة نوع من الرذيلة الآثمة، فآثر الصمت، وترك سيف يجر الحديث إلى حيث أراد من زيارته.

تكلم عن الثقافة ودورها في توعية الناس.. الفرق ما بين العلم وما بين الخزعبلات التي تعشش في عقول العامة والبسطاء. ثم عرج إلى الأدب وأحواله، وكيف كان أدبنا العربي، وإلى أين صار.

كيف كان الأدب معينًا للرقي بالأخلاق والمشاعر، ثم تحول إلى بورنوغرافيا تنطوي على عملية إنتاج واستهلاك صورة الجسد في كل خصوصياتها لنشر الرذيلة بين مجتمعاتنا لصالح أفكار غربية لا تخلو من مخططات استعمارية وتوسعية تحيق بالمنطقة، وتركنا كل ما هو أصيل في ثقافتنا العربية.

- معك حق يا سيف.. كل أدب إنساني يدعو للقيم والفضيلة في حقيقته أدب إسلامي، علينا أن نشجعه ونسعى لنشره.

هكذا قال الشيخ وفي عينيه تعبير سعيد، وأمَّن سيف ناصر على كلامه بالحمية نفسها قائلا:

- لكن للأسف هناك كتابات لا تخدم أخلاقياتنا، ولا تتوافق مع عاداتنا ودينا.. رغم ذلك يسمحون بطباعتها على نفقة الدولة من أموال الشعب المسكين.

قال جملته الأخيرة، ثم فتح حقيبته الجلدية وأخرج مسودات الكتب التي حملها معه وأعطاها للشيخ.

تناولها الشيخ من بين يديه، تسلل بنظراته بين صفحاتها، ثم وضعها إلى جواره وواصل حديثه، بينما انطفأ بريق كان يشع بعيني سيف بعد أن أنجز مهمته العاجلة وعاد مسرعا إلى قاهرته.

***

لم يرتب لأفكار بعينها يسوقها لرئيس الأمن بالمؤسسة، جمع صورًا من وريقات التسوية للميزانية الخاصة بالنشاط وصحبها معه.

لن يستغرق الأمر أكثر من بضع دقائق يعطيه فيها الأوراق ويتركه يراجعها كيفما شاء. أهم شيء في التعامل مع الدولة الأوراق اللعينة.

يولد الإنسان بورقة، ويموت بورقة، يصبح مواطنًا بورقة، ويبات بلا جنسية أو وطن بورقة.. لا يهم إن كان شريفًا أو لصًا، المهم ما تفصح عنه الأوراق والمستندات، وما دامت الأوراق سليمة، فكل شيء بخير، والأمور تسير على ما يرام.

إلى أين؟

لا يهم.

المهم الأوراق والفواتير.

كانت حجرة رئيس الأمن لا تختلف كثيرًا عن بقية حجرات إدارات المؤسسة بأثاثها الفقير الذي لا يزيد عن مكتب معدني وعدد من المقاعد الجلدية المتهالكة، الاستثناء الوحيد كان لمكتب رئيس المؤسسة وسكرتاريته.

حين دخل إلى المكتب وجد أحدهم جالسًا في أحد المقاعد أمام المكتب المعدني، عميقًا ومستغرقًا باطمئنان في جلسته.

تفقد المكان بعينيه فلم يجد أحدًا آخر.

سأله:

- ألا يوجد أحد هنا؟

- تقريبًا.

كاد سيف أن يتراجع وينسحب عائدًا إلى إدارته، ثم يعود في وقت لاحق، لكن الجالس باطمئنان في المقعد الجلدي أشار له قائلا:

- تفضل.. كلها دقائق ويأتي أحدهم.

استسلم سيف لكلماته وجلس في المقعد المواجه له، يعبث في أصابعه بين الحين والآخر، ويبتسم بسذاجة كلما التقت نظراتهما.
تفحَّص ملامحه ليعرف هل أتى مثله لشكاية تقدم بها أحدهم حقدًا على نجاح يُصنع، ووضع العراقيل في طريقه، أم تراه أحد الحاقدين الذين يغرسون الأرض أشواكًا تنغص على الناجحين حياتهم، أم مجرد زائر عابر لأحد العاملين بالمكتب؟
كانت ملامحه مبهمة كصورة شعرية لجماعة إضاءة، لكن بدا من هندامه أثر نعمة ما زالت تلاصقه.
- حضرتك بتشتغل هنا؟
قال وطيف ابتسامة يلامس وجهه:
-أنا.. لأ.. أنا ضيف.
صمت لحظة، ثم رفع جفون عينيه ناحيته.. ظلت عيناه للحظات تحدقان في ملامحه قبل أن يسأله:
- وأنت؟
- يعني.
قال سيف بتأنٍ حذر، ثم لم يعرف ما الذي جعله يسترسل معه في الحديث دون تحفظ اعتاد أن يلازمه.. حتى رئيس الأمن تطرق إليه وانتقده بعنف غير عابئ بوقوفه أمامه بعد لحظات.
قال محاولا إبهاره واستعراض ثقافته أمامه: ماذا يفعل الأمن بالمؤسسة؟ لا شيء تقريبًا، إدارة مبهمة لا دور لها إلا مكافأة بعض المتعطلين بمنحهم وظائف مجانية، ومكافأة رجال خدموا الحكومة بعد إحالتهم للتقاعد من مناصبهم.. لكن هؤلاء كيف يرضون أن يبقوا مجرد صورة في برواز قديم على حائط المؤسسة؟
لا دور لهم، ولا مكانة!

انظر يا سيدي إلى حجرة الرئيس، إنها لا تختلف عن حجرات موظفي الأرشيف.. ما معنى أن تكون رئيسًا بلا حاشية، وبلا سلطان أو جاه؟!

لن يحترمك أحد أو يخشاك إذا عاملوك مثل ورقة بيضاء تحركها الريح وتعبث بها كيف شاءت، ويلونوها بالألوان التي يبغونها.

عام مر منذ إنشاء الإدارة ولا أحد يشعر بها أو برئيسها.. فقط يتذكرونه لإرهاب من يختلف معهم من موظفي المؤسسة بتحقيق لا معنى له، أو كتابة تقرير ضد أحدهم يضمنون به ألا يعتلي مقعدًا لأحد المناصب القيادية.

لو كنت مكانه لأصبحت الرجل الخفي في المؤسسة الذي يتحرك كل شيء بإذنه وإرادته.

قال كلمته الأخيرة وداخله شعور بأن فرعون صغير يعشش في قلبه ويريد أن يخرج مارده.

بدا على وجه الرجل مزيج من الإعجاب والدهشة حين استوقفه متسائلا:

- وهل يستطيع أن يفعل ذلك؟

- طبعا.

وجد سيف نفسه يسترسل في الحديث بعفوية وأريحية جعلته لا يضع ضوابط أو حسابات لجمله.

تخيل لو كان مكانه ماذا سيفعل؟

من الغد سيستولي على الطابق السادس بأكمله لإدارته، سيتفق مع أكبر شركات التأثيث والديكور لتأثيث مكتبه الذي لن يسمح لأحد بدخوله دون موعد سابق تحدده السكرتارية الخاصة به.. حتى رئيس المؤسسة سيلزمه التفكير أكثر من مرة قبل أن يقترب من مكاتب إدارته. وحين يُسمح له بدخول مكتبه، سيكتشف أن الرئيس الحقيقي هنا في الطابق السادس.

الرئيس الذي يعرف كيف يربط تلك البالونات- المنتفخة والممتلئة هواءً والتي تملأ طرقات المؤسسة بالضجيج- بالأرض. لن تنطلي عليه العبارات والجمل الرنانة التي يرددونها على صفحات الجرائد أو عبر شاشات التليفزيون، لقد دخلوا بأقدامهم إلى الحظيرة، وعليهم جميعًا ألا يتجاوزوا أسلاكها.

لن يجعلهم يحلقون إلا بالكيفية التي يريدها.

مكافأة من هنا أو مكافأة من هناك ستجعلهم يسيرون خلفك كالقطيع، وإن شرد أحد عن القطيع سيكون عبرة لزملائه وللواقع الثقافي كله حتى لا يفكر أحد في الخروج عن النص المكتوب بعناية.

تلك الأشياء ضرورية وهامة لتصنع مكانتك بين الذئاب الذين لا يتركون شيئًا لمن أرادوا لأنفسهم أن يظلوا حملانا.

لكن أين هو الرئيس.. هل تصدق أنني لو قابلته في طرقات المؤسسة لن أعرفه؟!

كان يحاول أن يشرد بفكره ويذهب ببصره نحو مكان آخر، لكن لم تسعفه التفاصيل.

لم ينتبه سيف ناصر للرجل الذي نهض من مكانه إلى مقعده خلف المكتب المعدني وأمسك بقلمه بين إصبعيه ووضعه بين شفتيه كعاشق نهم يشتاق إلى سحب أنفاس لفافة تبغ بعد انقطاع عنها لسنوات طالت.

نهض هو الآخر من مكانه وظل يروح ويجيء بخطوات وئيدة منتظمة متحدثًا عن خططه للإدارة.. ظلا يتبادلان الحديث حتى اكتشف سيف أن الجالس أمامه لم يتكلم إلا بكلمات شحيحة لم تجعله يعرف عنه شيئًا تقريبًا، رغم إسهابه في الحديث معه.

حينها توقف وسأله بخصوص حضوره إلى إدارة الأمن.

من سيزور بالإدارة ولا أحد بها؟!

حاول الرجل أن يتهرب من الإجابة ليستمع أكثر إلى سيف لكن إصراره جعله يستنتج أن جعبته باتت خالية.

لم يقاوم الرجل إعجابه بسيف وشهية الكلام التي باغتته، فأجابه قائلا:

ستتعجب حين أحكي لك.. لا يتعدى الأمر كله كونه هراءً كبيرًا نعيشه.

كنت أعمل في جهاز سيادي مهم.. قدمت للبلد خدمات جليلة كبيرة لا يمكن أن تتصورها.. لكن من يتذكر، ومن يحفظ للرجال مكانتهم وحقهم في هذا الوطن، لكل بداية نهاية.. وحين لا يجدون لك المكان المناسب يضعونك في أي مكان كنوع من المكافأة أو الترضية أو أي شيء آخر، لك أن تسميه كما تشاء، المهم أن يضمنوا وفاءك حتى النهاية.

على الأقل.. في نهاية كل شهر سيحولون إلى حسابك البنكي ما يكفي للمساعدة بإدارة شؤونك الشخصية بشكل معقول.

انتهى دوري بالجهاز، وأرادوا مكافأتي بتعييني مديرًا لمكتب أحد الوزراء، كنت بحكم منصبي أعرف الكثير عن فساده.. تقارير كثيرة عنه مرت من بين أيدينا، وكنا مع كل تغيير وزاري ننتظر خروجه من الوزارة.. لكن يبدو أن التقارير كانت تساعد أكثر في ترسيخ مكانه، فنفاجأ به كأول المطروحين في التشكيل الجديد.

أردت الاعتذار عن قبول الوظيفة والاكتفاء بالمدة التي قضيتها في عملي السابق، لكنهم أصرّوا.

قالوا إنها فترة مؤقتة لن تطول.. عند أول تشكيل أو فرصة لتغيير وزاري سأكون أول المطروحين للدخول فيه.

- لا تضيع الفرصة على نفسك، لقد خدمت الوطن كثيرًا.. وأنت أحق بالوزارة من غيرك.

هكذا قالوا، وأنا صدَّقتهم.

لكن العمل معه كان بمثابة الغلطة التي تلوث ثوبك إلى الأبد، وتضيع

معها الأحلام الكبيرة، لم أكن أتخيل أحدًا بتلك الفظاظة والخسة والضعة في منصب رفيع بهذا المستوى.

لم يكن يخجل حتى من التربح من أي شيء عابر يمر من خلال الوزارة.. لم تكفه مليارات الجنيهات التي تكدست بها أرصدته ببنوك سويسرا.. كان يستغل صغار الموظفين بالوزارة بكافة الأشكال، وكأنها تكية خاصة يديرها لحسابه.

لكن كل ذلك يهون إلى جوار شخصيته الوضيعة وسلوكه المشين.

فبخلاف أنه لم يكن ملمًا أو عابئًا بالعادات والآداب المناسبة للمجتمعات المتحضرة، كان منفلت اللسان، لا ينسى أصوله الوضيعة التي تظهر مع كل مناسبة في ألفاظ سوقية خارجة لا تُقال حتى في الحواري وليس في ديوان وزاري. خاصة وهو يدمن الشراب في كل وقت.. ولا يتورع عن اصطحاب الداعرات إلى مكتبه في وضح النهار.

كنت أتعجب وأتساءل عن السبب الذي يجعلونه يستمر في منصبه بعد أن فاح أمره، وتخصصت إحدى الصحف المستقلة في نشر وقائع فساده على صفحاتها. لكنهم نصحوني بأن أستمر في عملي وأتغاضى عما أسمع وأرى.

أحدهم أشار إلى الأخبار التي تتسرب إلى الصحف عنه ونصحني أن أخفف من حدة المعركة من أجل الكرسي المنتظر.

بعدها حاولت أن أتحاشى الاصطدام معه، لكن كان من المثير للسخط لدي محاولة استغلالي الشخصي في تسهيل إنهاء الإجراءات الخاصة بسفر زوجته وأولاده واصطحابهم إلى المطار وعند العودة إليه.

ثم تمادى بتكليفي بمهام خاصة، قبلت بعضها على مضض، ورفضت البعض الآخر مما يستحيل أن أتخيل نفسي أقوم به.

حين رفضت، جن جنونه.. سبني بألفاظه القبيحة كما اعتاد مع موظفيه.

حينها لم أتمالك نفسي، انقضضت عليه، ولم ينقذه من يدي إلا أمنه الخاص.. كنت من اليوم الأول لتعييني بمكتبه أتحين تلك الفرصة، ولم أكن لأضيعها.. لم أكن غاضبًا لسوقيته أو تعليقاته المخجلة أمام العاملين بالوزارة، بقدر ما كنت ساخطا على وجود شخص مثله في ذلك المنصب الرفيع.

لكن كلما فكرت في ضربه أعدت النظر في الأمر، وقارنت ما بين إشباع رغبتي الخاصة في ضربه وما بين احتياجي لتثبيت مكاني لأشق طريقي إلى كرسي الوزارة، فاخترت الحل الأخير، حتى حانت اللحظة التي لم أتمالك فيها نفسي.

بعدها حين استدعوني قالوا إن ما فعلته يمثل ضربًا من الجنون.. ولولا خدماتك الجليلة للوطن لما مر الأمر بسلام.

قالوا إنهم تقديرًا لتاريخي سيعينونني بإدارة بوزارة الثقافة.

اعترضت وقلت: ما علاقتي أنا بالثقافة؟

لكنهم نصحوني أن أنفذ الأوامر بلا اعتراض.. أحدهم قال نفس كلامك تقريبا: (إنها إدارة بلا عمل تقريبًا.. إن مللت من البيت يمكنك أن تذهب لتحتسي قهوتك بالمكتب).

ساعتها نهض سيف ناصر مرتبكا.

حاول أن يتذكر ما قاله تحديدًا، هل قال شيئًا لن يغفره له الرئيس أو ينساه؟

لم يستطع أن يكمل جملة واحدة بشكل صحيح:

- يعني ي ي.. حضرتك.....

- اجلس واطمئن.. لم أصبح رئيسًا بعد، فأنا ما زلت بانتظار الرئيس السابق لأتسلم الإدارة منه.

***

لا أحد في المؤسسة يعرف عن ذلك اللقاء البعيد، وكيف أصبح سيف ناصر بعدها رجل صلاح خطاب في المؤسسة، الذي ينقل له كل صغيرة وكبيرة بها.

من جانبه لم يدخر صلاح خطاب جهدًا في الأخذ بنصائح سيف ناصر حتى أصبح الرجل الذي يخشاه الجميع بمن فيهم إيهاب فخري نفسه.

كان سيف يريد أن يقول لزملائه الذين يجدونه مثل قصيدة نثر في جسد تقليدي مقفى: ماذا فعلتم أكثر من بضعة مقالات هاجمتم بها مؤسسة حكومية شائخة وانتصرتم عليها، ثم التسكع بين مقاعد الجريون وزهرة البستان بحثًا عن فكرة جديدة تسقط من أوراق قروي ساذج بعثرت أوراقه أحلام الشهرة بقاهرة أمل دنقل والأبنودي ويحيى الطاهر عبد الله.

في الثقافة لا توجد محاذير، يمكنهم أن يسيروا فردًا فردًا خلف أمجد ريان وهو يحدثهم عن سوزان برنار والقصيدة الجديدة وأوراق الكلينكس ويلقوا بزجاجات البيرة وطفَّايات السجائر وبقايا التبغ المحترق في وجه أحمد عبد المعطي حجازي الذي نصب نفسه هرما أكبر لكلاسيكية الشعر. أما سيف ناصر فقد حارب الحكومة وانتصر عليها في محراب السياسة التي لا ترحم.

واحدة بواحدة، فلا غالب ولا مغلوب.

طلب من عامل البوفية أن يسقي المؤسسة كلها مشروبًا على حسابه وأسرع إلى مكتبه ليلملم أوراقه ويلحق بمقر الحزب للاحتفال الكبير.

لكنه وجد أنور شفيع ينتظره هناك!

- أنور شفيع!

تعانقا طويلا قبل أن يسأله عن أحواله وأحوال الفيوم، ومتى عاد من سفره؟

اتكأ أنور على مقعده إلى الخلف وسحب نفسًا عميقًا من دخان سيجارته وزفره بعنف في وجه صاحبه وقال:

-من تقصد في الفيوم؟

- أنت.. وحاتم.. وشوقي.. وبقية الأًصحاب.. والأدباء بالقصر.

- حاتم ترك العمل بالفيوم.. نُقل إلى قوات الأمن بالمنيا.. ثم سمعت أخيرًا أنه عاد إلى المباحث. يقال إنه تسلَّم عمله في قسم شرطة إمبابة منذ أيام.

- النذل.. حاتم في القاهرة ولم يتصل بي.. سيكون لي معه حساب عسير. وأنت وشوقي إيه أخباركم؟

- لقد جئت إليك من أجل شوقي.

- خيرًا.. هل حدث له مكروه؟

قال الجملة الأخيرة وتذكر أنه مر أكثر من عامين على لقائهما الأخير بعد أن خرجا من عند الشيخ إخلاص.. ودَّعه عند محطة مصر ومضى مطرقًا لا يلوي على شيء خلفه.

أنور قال إن أموره تسير من سيئ إلى أسوأ.. لم يعد يشعر بأن له مكانًا في هذا الوطن.. حتى الإجازة القصيرة التي يقضيها هنا يستشعر أنها مثل واجب ثقيل يؤديه بلا رغبة.

- تخيل يا سيف لم أعد قادرًا على كتابة الشعر، خاصمتني القصيدة فلم أعد قادرًا على مراودتها. أصبحت الأشياء تنفلت من بين أصابعي واحدة بعد أخرى منذ ضاعت سلوى من بين يدي.

كان يريد أن يستطرد أكثر عن خضوعه لرغبة أمه.. لن يقدر أحد تلك السطوة التي تمارسها، لن يصدقوا أن الشاعر الباحث عن التمرد لا يستطيع أن يقول لا في وجه أمه، ويكسر قافية واحدة ليخرج من عباءة التقليدية إلى ثوب الحداثة.. حين قال لأمه إنه يريد أن يتزوج انشرح قلبها، شعرت ساعتها أن تعب السنين لم يضع هباء، اغرورق الدمع بعينيها ونظرت

ساهمة إلى صورة أبيه تريد أن تبوح له بأوجاع السنين.. أنور أصبح رجلا تتمناه النساء، ذلك الطفل الذي تركته بين يدي بات رجلا تحلم النساء به فوق حصانه الأبيض يدق خدرهن ويقطف أزهارهن البيضاء.

كان رهان حياتها الأكبر الذي تركه زوجها لها بعد حياة قصيرة لم تشبع نزيف جسدها.

كانت تقرأ نظرات الشفقة في عيون العائلة على العروس التي ترملت مبكرًا، والصغير الذي اختار اليتم مسكنًا.. لكنها كانت تستمد من ضعفها قوة، ومن وحدتها سياجًا تحمي به صغيرها من سموم العواصف، حتى صار رجلا وشاعرًا تتحدث البلدة عن أشعاره التي يقرؤونها على صفحات الجرائد. صارت الأم والأب بالنسبة له، وصار لها كل شيء في حياتها.

كاد حلمها أن يتحطم حين عاد قبل امتحان عامه الأخير بالجامعة ليقضي الأيام الأخيرة العصيبة التي تسبق الامتحان في رعاية أمه.

كانت البلدة تموج بأحداث الفتنة، والعساكر تحاصر الشوارع والميادين، امتدت اليد العمياء وأمسكت به، وحملته إلى عربة صماء لم تسمع لاستجدائه.. دقت أبواب المسئولين واحدًا بعد آخر، ظلت تقسم لهم أن ابنها لا علاقة له بشيء مما حدث بالبلدة عقب تعدي قبطي على طفلة مسلمة.. أنور كان بسكنه بالمدينة الجامعية وعاد ليستذكر دروسه قبل الامتحان.. لكن أحدًا لم يستمع لها، أو يمد لها يد العون.. ظلت تترجاهم أن يطلقوا سراحه ليلحق بامتحانات آخر العام، لكن العربة السوداء كانت بلا قلب، لم تتعلم معنى الإنسانية، ولا تعرف شيئًا عن مشاعر الأمهات، ولا تستجب لتوسلاتهن ورجاءاتهن المخضبة بالألم.

أيام وحملته مع كثير من شبان البلد بعيدًا.. قالوا سيحبس بالفيوم، ومرة يقولون لها إنه في سجن المنيا، ومرة يقولون في سجن أبي زعبل أو ليمان طرة.

مرت الأيام عليها طويلة كدهر، لحظتها شعرت بضعفها وعجزها، لو كان أبوه على قيد الحياة لعرف مكانه وحملها إليه.

لكن الأيام بأي حال تمر.

خرج أنور من معتقله، والعام الذي فاته عوضه عام آخر.. أنهى دراسته وحصل على شهادته، وها هو يقف أمامها ويطلب الزواج.

ضمته إلى صدرها وقالت:

- شاور إنت بس وأنا أخطبلك بنت أحسن عائلة في البلد.

لكنه ظل صامتًا ولم يقل شيئًا.. كان يعرف الأفكار التي تعشش كخيوط عنكبوت عجوز برأس أمه، لا تستطيع أن تنسى ما حدث لأخيها، ظلت تعتبره ثأرًا لا يموت بينها وبين عائلة سلوى، لا تزال تسمع صدى صوته المفعم بالشباب والرجولة يتردد في أذنيها حتى يضيع في أعماق المحيط دون أن تمتد له يد وتنقذه، أغلقت الفجيعة كل المحاولات لإقناعها أن ما حدث قضاء وقدرًا، لا ذنب لسلوى وعائلتها به، أسرته عالية العمة كما أسرت سلوى أنور ابن الأخت، أغلق عشقها كل سبيل للعقل والتعقل، وقف حائلا أمام كلمات القدر والنصيب التي يرددها العامة سواء اكتووا بنار العشق واستسلموا لهزائمه، أو ذاقوا حلاوة وصاله وحياة الرغد في نعيمه، دون أن يشعروا بما اكتوى به قلبه.. ما طلبه جد سلوى مهرًا لعاليتهم لم يكن بمقدور أحد من أبناء البلدة دفعه.

الأهل والأصحاب والجيران فسروا مغالاتهم في المهر على أنهم يرفضون تزويج ابنتهم له بطلبات يستحيل أن يستطيع تلبيتها، لكن الخال أبى، انفرطت كلمات مبعثرة على حافة لسانه، وقال: إن طلبوا لبن العصفور مهرًا لعالية سأحضره.

ولم يكن أحد يعرف شيئًا عن الأمل الذي ظل يتواثب وينقر الشباك التي غزلها لعش يجمعه بها.

حين قال إنه سيسافر ليدبر المهر الذي طلبوه، كان الناس يتطلعون إليه بمرارة وعتاب، يقولون له: ستأكلك السنين دون أن تحصل على شيء.
لكنه قال إنه سيسافر ويعود لعاليته مهما بعد الزمن، وستنتظره عالية مهما غاب.
سافر الخال وأكله البحر.. خرج قاصدًا ليبيا للعمل هناك، وبعد شهور من سفره جاء أحد الأغراب ملتحفًا بالمرارة والشجن، وقال إنه كان معه في ليبيا، وأنهما فكرا معًا في السفر إلى إيطاليا للعمل هناك.. ركبا مركب صيد حملت الشباب وأحلامهم إلى عرض البحر وألقت بهم إلى المجهول المرعب بمجرد أن طاردها خفر السواحل، مات من مات، ونجا من نجا.. نكس رأسه وسقطت دمعة من عينيه وقال: البقاء لله.
- سكت ليه؟
- أنتِ تعرفينها يا أمي.
- تقصد مين؟
شاهد ثيابها ترتعش وتئن فوق جسدها.
أزاحته بعيدًا عن حضنها، وظلت تثرثر مع صورة أبيه المائلة فوق الجدار عن خيبة الأمل والتربية التي لم تنفع والشماتة التي ستقرؤها في عيون نساء العائلة.
- لن أضع يدي في يد قتلة.
- هل نسيت خالك يا أنور.. هل هان عليك دمه إلى هذه الدرجة؟
- لكن يا أمي خالي مات، ودفن الماضي معه، فلم تريدين أن تحكمي عليّ بنفس المصير.. اختاره القدر لمصيره، كما اختار لنا حياتنا.
لكنها لم تستمع له، لم تغفر لعالية التي عاشت على ذكرى الخال تأكلها الحسرة حتى ماتت، ماض انتهى ومر، فلم نظل عالقين بأذياله الدامية؟
لكن من قال إن العقاد استمع إلى صلاح عبد الصبور أو عبد المعطي

حجازي؟ من قال إن حجازي استمع إلى أمجد ريان وشعراء قصيدة النثر؟ ستظل كل قصيدة في خصامها مع الأخرى حتى وإن كانت الضحية سلوى!
سلوى.. سلوى.. سلوى.
ظل يردد اسمها في نفسه مفتونًا بصدى الخفقان الذي يحدثه في قلبه ليخفف من وجع الجرح الذي ما زال ينبض.
في الحقيقة كان يريد أن يستدعي سيرتها بمناسبة أو بغيرها بحثًا عن أريج الذكرى أو رغبة في عقاب النفس وجلدها في كل لحظة.
(لكن.. لكن)
هكذا ردد في نفسه وتمنَّى لو كان الجالس أمامه شوقي واستفاض معه في حديث لا ينتهي عن سلوى، وعن القهر الذي مورس عليه ليتركها تضيع منه.
شوقي ربما يتفهم الوضع بعد أن زلت قدماه ووقع في فخ الحب.
البنت التي تشبه شجن ربابة سحرت قلوب طاولة نادي الأدب بقصر الثقافة، قطعت اجتماعهم وقالت إنها تريد أن تصبح شاعرة، رغم أنها كانت أجمل من كل القصائد التي وقعت عيونهم على حروفها، أكثر موسيقية من بحور الخليل بن أحمد وأكثر تمردًا من نساء نزار قباني.
شوقي أجلسها إلى جواره، ودعاها لتقرأ خواطرها، وفي قرارة نفسه كان يتمنى ألا يسمعها أحد غيره.
فتحوا عيونهم وآذانهم بإنصات لم يحظ به كاتب من قبل.
الخاطرة التي لم تتعد عدة أسطر حظيت بمناقشات تكفي الندوة لعام كامل، بعضهم جعل منها ربة للشعر، وجعل أسطرها المرتبكة تتخطى شاعرية نازك الملائكة.. وربما كان صادقا لو كان يصف عينيها.
أما الآخرون الذين لم يستطيعوا مجاراتهم في المديح، هاجمهم جوع وحشي للافتراس، حاكموا الشعر في سطورها الوليدة وأطلقوا السهام

الجارحة حتى تخضبت الطاولة بدماء الحروف العاجزة عن الإفصاح عما يدور داخلهم من إعجاب بجمالها يريدونه أن يصل إليها ولو استخدموا في ذلك شراسة ذئب جائع.

البنت التي تشبه شجن ربابة لم تعِ ما يدور حولها ولم تفهم السر وراء مهاجمتها بشراسة وخمشها بالكلمات، وهي التي أتت بخطواتها الناعمة إلى طاولة نادي الأدب لتتعلم الحب والجمال، وتلمع مثل نجمة مضيئة في السماء. نزفت دموعها بحرقة، وتركت طاولة الطابق السادس تتقاسم الاتهامات واللائمة فيما بينهم.

شوقي هرع خلفها، ركب المصعد معها، وقال إنها أجمل من أية قصيدة جادت بها قريحة الشعراء، ناولها منديلا ورقيًا لتجفف دموعها وربت على كتفها وضمها إلى صدره ضمة خفيفة.

أفاقت حينها وسحبت نفسها وابتعدت عنه خطوة أو خطوتين.. عيناها لمعتا بوميض غريب كقطة غاضبة، استشعر معه شوقي بالخجل، مال برأسه وقال:

- أنا آسف.. لم أكن أقصد شيئًا.. كنت فقط لا أريد لهاتين العينين أن تجرحهما الدموع.

وهي صدقته.

تآمرت المصادفة والدموع وعطل فاجأ المصعد وخوف غريزي خمش قلبيهما في لحظة واحدة، جعل قلبيهما ينبضان على إيقاع موسيقي واحد. تشبثت بكفه وهي تصرخ وتستغيث لينقذهما أحد.

كان الحديث عن التكلفة الباهظة التي تكلفها تشييد قصر الثقافة الجديد الذي استغرق أعوامًا عديدة، والمصاعد التي لا تعمل بكفاءة، وعدم اكتمال التشطيبات، وحادث مصعد عمارة الأوقاف بالفيوم وانهياره بمن فيه مازال عالقا بالأذهان بصوره القاتمة.

دقائق من الخوف والرعب والحب وارتعاش لا إرادي لجسديهما مرت عليهما حتى تمكن عمال القصر من إصلاح العطل وإخراجهما.

لكنهما لم يخرجا من المصعد كما دخلا فيه، باتت تجمعهما لحظة من صنع القدر، وألفة صنعتها أزمة عابرة.

الأمنية التي تمناها شوقي في نفسه وهو جالس على طاولة نادي الأدب استجابت لها السماء، وأصبحت تكتب وتقرأ له وحده خواطرها الشعرية.

يلتقيان بقصر الثقافة أو كافتيريا المدينة أو حدائق باغوث، يقضيان الساعات الطوال معًا دون أن يشعرا بها.. حتى عندما يذهب شوقي إلى ندوة أو أمسية خارج المحافظة يصحبها معه.

كان مدفوعا بقوة أكبر منه للوقوع في الحب حتى تسري في أعضائه تلك القشعريرة السحرية التي تعيده للحياة.

كان مدفوعًا بقوة أكبر منه للوقوع في الحب للاحتفاظ ببعض الأمل في مواصلة اللا جدوى ومقاومة الرغبة في حفر قبر يزداد ضيقًا عليه يومًا بعد يوم.

وقع في أسر الزواج مبكرًا.. شمس زوجته الطيبة كملاك لم تبخل بشيء من أجل مواصلة الحياة بسيرها الرتيب، وتوفير النفقات من ريع أرضها التي ورثتها عن أبيها لحياة لا تكف عن المطالبة بالمزيد والمزيد كل يوم.. لم تشعره لحظة بأنها تحتاج إلى شيء مما تحتاجه النساء، أو أنها تفعل شيئًا يختلف عما يجب أن تفعله الزوجات مع أزواجهن، أو تضج بطلباته التي لا تنتهي.

راتبه من عمله بمجلس المدينة يكفي بالكاد نفقات حساب المشروبات على المقهى مع أصحابه.. أما الكتب والمجلات والجرائد التي تكدست بها حجرته فتحتاج إلى راتب آخر.

لم تشأ يوما أن تسأل عن حقوقها، تركته أسير حجرته وأوراقه، وأسير ندواته وأصحابه من الذين مسَّهم شيطان الكتابة.

لكن من قال إنه كان يشعر بالحياة مع ذلك الإيقاع الرتيب، كان بحاجة إلى شيء يصيبه بالخفقان، ويولد لديه طاقة المواصلة ومجابهة الضياع واللا جدوى.

كثيرا ما سأل نفسه عن جدوى ما يفعله في حياته، عن الكلمات الكبيرة التي ينطق بها على طاولة نادي الأدب ويرى في العيون الانبهار بها.

عن القصص والروايات والأشعار والأفكار الكبيرة التي يتداولها المثقفون كعقار مسكن يعميهم عن واقع لا علاقة له بأفكارهم وقصصهم المجنونة.

مجتمع يصعد بقيم الاستهلاك والفوضى ويدهس بقدميه فوق كل ما هو جميل في حياتنا دون أن يستشعر ذنبًا.

أحيانا يشعر أن ما يفعله وغيره من المثقفين نوع من الهروب لعدم مواجهة الحقيقة، موت بطيء يسيرون إليه بعد أن وضعوا عصابة على أعينهم حتى لا يروا الهاوية التي ينزلق إليها الجميع في ظل فساد طال كل شيء.

كان بحاجة إلى ذلك الخفقان الذي داهمه بمصعد قصر الثقافة، وظل مصاحبًا له منذ عرفت هبه طريقها إلى حياته، والتقطته كما يلتقط نورس سمكة شاردة لتعود به إلى السباحة في طريق الأمل والحياة.

لم يعبأ بزوجته وصغيره والحياة الرتيبة التي تسير بآلية تروس آلة مجنونة لا تكف عن الدوران ودهس كل شيء يعترض طريقها.

حين تبادلت النساء النميمة فيما بينهن، ثم همسن بها في أذن شمس عن العلاقة التي يغرق فيها زوجها، لم تعبأ بكلامهن.

قالت: إنها نزوة عابرة، الفنانون والمثقفون مثل الطيور تحب أن تغرد فوق أغصان الأشجار لكنها سرعان ما تعود إلى أعشاشها.

بررت لنفسها وقالت: ربما يعيش حالة كتابة، ويبحث عن صدق الحالة في تجربة ستنتهي مع انتهاء الكتابة.

لاحظت مثل هذه الحالات من قبل، كانت تتكتم هواجسها وظنونها لأيام، وأحيانًا لأشهر تقضيها مثل شمعة تحترق وتذوي دون أن تبدي اعتراضًا، وحين يعود يجدها في انتظاره.

لكن حين علمت عن رغبته في الزواج بهبه انقلبت إلى نمرة شرسة تتمطى وتنكمش وتقفز وتهاجم في آن واحد دفاعًا عن حبيبها وبيتها.

لم تترك أحدًا من أصدقائه وأقربائه ومعارفه لم تتصل به.. اتصلت بأنور شفيع الذي كان عائدًا لتوه من عمله بالسعودية، وقالت إنها من الممكن أن تتفهم أي شيء إلا أن يتزوج عليها.

كانت تفهم الحب على أنه علاقة يقوم فيها العاشق بتقديم كل شيء دون انتظار مقابل، لكنها الآن عدَّلت من أفكارها وراجعتها، وأرادت أن يظل حبيبها حبيس عشها وحدها فقط، ولا يقفز إلى أعشاش الحديقة الممتلئة بالأزهار والفراشات.

لقد تركت له حياته يفعل بها ما يريد، ولم تسأله عن شيء، ولا تريد أن تمنعه عن شيء مما يحبه، مهما كلفها الأمر أو كلف صغيرها.

إلا أن يتزوج عليها.

ستترك له الدنيا بما فيها.

لم يفهم أنور ما تعنيه بكلامها، لكنه كان يشعر بأنه مدين لها بالكثير هو وأصحابه. كان بيت شوقي الملجأ لهم في كل الأزمات، كان الوحيد الذي تزوج وأصبح له بيت مستقل، ولم تتأخر زوجته يومًا عن خدمتهم أو تضج بهم لأجل زوجها.

أصبحوا يمارسون معه ذات الألاعيب، ويطالبونه أن يظل متمسكًا بالأطر الشكلية المعتادة رغم كل دعاوى الحداثة.

(فليذهب النقاد إلى الجحيم.. فما فائدتهم إذن إن لم يستطيعوا أن يغيروا الأفكار البالية التي تعشش برأس أمي، أو يقنعوها أن أحدنا قد يلقى حتفه في منعطف من منعطفات الموت الكثيرة التي تحيطنا من كل اتجاه، دون محاكمات وإدانات ومقاصل للقتل، أو أن يقنعوا زوجة شوقي بحقه في الحب).

قال أنور في نفسه، وقطع شروده الذي طال.

نظر إلى سيف الذي كان منهمكًا في إخراج وترتيب الأوراق بأدراج مكتبه وجذبه من يده ليشد انتباهه، وقال:

- انظر يا سيف.. الوطن أصبح ضيقًا أكثر من خرم إبرة.. إذا كنتُ عاجزًا عن انتشال نفسي من الضياع وأنا أرى الأيام تهرم بحسراتها الكبيرة دون أن أستطيع أن ألحق بقطاراتها التي لا تنتظر أحدًا، فكيف تريدني زوجة شوقي أن أساعدها؟.. لم أجد أمامي غيرك.. أنت الوحيد الذي يستطيع إقناع شوقي بالعدول عن قراره.

كان أنور يتحدث بنعومة الرماد المتلاشي شيئًا فشيئًا.. ويعد نفسه للرحيل عن وطن لم يعطه إلا الطعنات ووخز الألم، ولا يريد أن يربطه شيء به.

سلوى كانت وطنه، وبعد أن ضاع الوطن ووطأه رفعت الشهاوي بجسده وحبسه في زنازينه، بات لا معنى لوجوده هنا، سينهي إجازته ويعود إلى غربته. بينما سيف تتخبطه أمواج عاتية لرياح تفتح أبواب مستقبل جديد أمامه.

جمع أوراقه وحملها بين يديه وشد صاحبه من فوق كرسيه ودعاه لينطلقا للحاق باحتفال الحزب. بعدها سيكون بإمكانه أن يحكي له عن كل شيء باستفاضة.

أراد أنور أن يعتذر له عن مصاحبته إلى هناك، لكن شيئًا دفينًا جعل سيف يصر على أن يحضر معه الاحتفال.

لقد كان ما ينقص اليوم أن يشاهد أحد من الفيوم زهوة انتصاره.. وها هو أنور شفيع يحضر بقدميه.

أصبح الآن مقتنعًا أكثر من أي وقت مضى أن السماء اليوم فتحت أبوابها في وجه رغباته، ولن يمنعها أو يردَّها أحد.

***

(4)

عوت كذئبه حقيقية نهمة لافتراس حمل وديع تركها للضياع

في أغسطس تصحو جدرانها الصامتة على عرق غزير ينساب مثل خطايا من المسام رغم أزيز مروحة المكتب التي لا تكف عن صفع جسدها المنهك بهوائها المحموم.

ترفع جفونها المجهدة متأملة النقوش التي رسمتها تهويمات وشطحات وأسئلة الرأس المجهد بالسقف.

تراها تتدلى ككائنات تخرج من لوحة سريالية لسلفادور دالي.

في بقعة مظلمة وبعيدة من الذاكرة تبحث عن طفلتها بضفيرتها المسدلة خلفها كذيل حصان جامح في براري خضراء بلا انتهاء.

تتأمل مخلوقاتها الصغيرة تعبث بسقف حجرتها.

عرائس صغيرة تغني وتمرح.. تطير بأرجوحتها لتلامس السحابات البيضاء، وتقطف نجمة من السماء البعيدة، وتلقيها على الأرض لتشع أضواءً ملونة وزاهية.

تصنع كرنفالا من البهجة والصخب.

حينها تتمنى أن تصعد مع عرائسها الفرحة وتظل تحلق فلا تحدها جدران أو تصدها سماوات.

لكن في لحظة تتبدل الأشياء.. تطل عيون حمراء شريرة، لها ناب وحيد ينزف دمًا من بقعة مظلمة، وتقذف الأرض بمادة لزجة بشعة.

نفس العيون التي ظلت تطارد عمتها غالية، حتى أسرتها وطارت بها بعيدًا.

تراها البنت فتسقط من حلمها وتتوارى خلف غطائها وجلة.
تنتظر لحظات تمنِّي نفسها فيها بعودة الحلم، تتسحب بنظراتها من تحت الغطاء فلا تجد عرائسها الصغيرة، ولا نجمتها الزاهية. لا تجد إلا أشباحًا بأيادٍ خرافية تمتد لتمسك بها.
تصرخ وتستغيث.. تهرب بجسدها المحموم تحت الغطاء، وتتكور مثل ضفدعة تموت خوفًا ورعبًا، ولا يشعر بها أحد.
أين ذهبت تلك البنت.. هل ما زالت تسكن غرف قلبها الموصدة، أم خطفتها الأشباح وألقت بها في غور عميق مهجور، وتركتها وحيدة؟!
لِم ذهبت وتركت أشباحها تخايل سماوات سلمى؟
بصعوبة تجتر ساعات الأرق المضني الذي سكن ليالي وحدتها التي اختارتها لتتخذ قرارها مع مرارة التبغ التي لا تفارق حلقها وتهش كائناتها المرعبة بعيدًا.
عصام أعطته لأمها، وقالت إنها ستسافر لأيام خارج البلاد لمهمة خاصة بالعمل.. مهمة تقشير مشاعرها وتعريتها، وهي التي أجادت تلوينها بالأصباغ الصناعية طيلة الوقت لتتعايش مع مجتمع المقنَّعين!
أخرجت شريحة محمولها وأدخلت شريحة جديدة، أعطت سرها لأنور وحده ليتصل بها فقط حين يصل إلى المطار، واختارت شقة أكتوبر الرابضة عند أطراف الصحراء لتظفر بالوحدة والألم.
اشترت هذه الشقة ولم يعرف بها أحد، لا رفعت، ولا أبوها، ولا أنور.. حتى أمها لم تُرد أن تخبرها، وظلت تحتفظ وحدها بسرها.
كانت بحاجة إلى زنزانة من اختيارها تمارس فيها حزنها الطائش الفوضوي ووحدتها المجهدة، دون أن ترقبها العيون أو توجعها نصائح المستسلمين للنصيب والقدر، أو أن تصل إليها أياديهم القاسية فتعيدها إلى محطات الحزن الرتيب.

تزحزح جسدها المنهك إلى حافة الفراش وتركل أيامها الفائتة إلى جوار الحائط، تلسعها بطنينها الموجع.

تمضغ كراهية لشيء مجهول وتقاوم رغبة أعضائها في الاستسلام لتناوم مرهق.

تجرها خطوات متعبة إلى باب الحمام الموارب.

من بعيد تلمح أشياءها تتناثر بفوضوية بأرجاء الشقة كحشرات منهكة؛ إيشارب حريري أسود يرقد باستسلام فوق كنبة الفوتيه إلى جوار كتب ومجلات وجرائد وقارورات برفان وغبار يتطاير من طفايات السجائر الممتلئة.

وبقايا بن محروق بفنجان وحيد.

بالمشجب المعدني لباب الحمام علقت "كلوتات" بألوان وأشكال مختلفة.. إلى جوارها بلوزة بيضاء متسخة، لا زالت تحتفظ برائحة عرقها الذي برد، واتخذ شكل خطوط صفراء شاحبة.

من خصاص النافذة تتسرب شعاعات تخفف من رمادية الظلال.

ساعة الحائط تصدر رنينًا حادًا ومزعجًا، لم ينجح اعتياد سماعه في تخفيف وطأته، يشبه رنين قلبها بدقاته الموجعة.

أحنت رأسها إلى الأمام، تتجول في مدينة أشواقها القديمة، تسترجع شريط حياتها أمامها لحظة بعد لحظة، حين كان بياض حياتها مازال يحتفظ بنصاعته، تذكّرت كم عانت مع والدها في محاولة إقناعه بالموافقة على الزواج بأنور.

منذ التقت عيناهما نبت شيء في القلب أشبه بحدائق برية من عشب وشجيرات وأزاهير وموسيقى عزفتها الملائكة على غناء الطيور.

كل الحارة شهدت حبهما، لم تعبأ للعيون المتلصصة من الشقوق والثقوب ترقب همساتهما ونظراتهما وأنفاسهما.

لم تعبأ بأشباح العمَّة حين تنقر حلمها الصغير، كانت تتخيل أن الشمس ستذبل وتنطفئ وتموت كما ذبلت عالية وماتت، لكن شيئًا لم يحدث، وأشرقت الشمس من جديد، غردت البلابل بعد أن طال عويلها الجوار كله كلما دق الموت بأكفه القاسية باب أحد البيوت.. لن تسمح لأحد أن يغتال فرحتها التي وجدتها هناك في أحضان شجرة إلى جوار أنور، ستخطف حلمها بعيدًا عن العيون والأشباح والماضي لتخبئه وتحميه في قلبها الصغير.. كانت مؤمنة بأن حبهما هو الماضي والحاضر والمستقبل.. بقدرته وحده على مداواة الجراح التي عجز الزمن عن مداواتها.

والدها كان يراه شابًا حالمًا يعيش على أطلال..

"الليل والخيل والبيداء تعرفني.. والسيف والرمح والقرطاس والقلم"!

كان يتمنى لها عريسًا لا تشعر معه بالحاجة إلى أحد.. الدنيا تغيرت واتسعت تجارته حتى ضاقت بها مدينته الصغيرة وافتتح حانوتًا كبيرًا بمدينة نصر، أصبحت ابنته ربة من ربات المال والجمال يطلبها كبار التجار لأبنائهم، وربما كان نصيبها في واحد ممن يجمعون ما بين المال والسلطة معًا.

أمها ألحت عليه، قالت:

- يا رجل.. هل تريد أن تكرر ما فعله أبوك مع عالية.. من أجل قرشين رزقكم الله بهم تحرم ابنتك من السعادة؟!

حين وافق تحت إلحاحهما، راحت تجري فرحة كطفلة وجدت لعبتها، ركضت إليه وفي جعبتها سعادة تكفي العالم، كانت زهور أرجوانية ساحرة تتفتح أينما حطت قدميها، طيور تخرج من أعشاشها في جماعات وتغرد سعيدة.. أمسكت بكفيه، وقالت إنها فاتحت والدها، وأنه بانتظاره ووالدته.

لكنه طأطأ رأسه إلى الطاولة، هيمنت عليه قوة خفية ألجمته وأخرسته عن الكلام.. شعرت به ينفلت من كوخها الصغير الذي بنته فوق شجرة الأحلام ويسقط على الأرض.

ارتعش قلبها للهاجس الذي شعّ من روحها، شعرت بحرقة رهيبة في رئتيها تتصاعد إلى حلقها، وقفت ثائرة أمام صمته وتساءلت قائلة:

- أمك غير موافقة؟

حوط رأسه المنحنية بكفيه، ولم ينطق.

ذات القلب المطعون بحربة صرخت فيه وهي تبتلع دموعًا تعوّدت طعمها المر وتساءلت:

- وإنت هتعمل إيه؟!

ظل صامتًا من دون أن يأتي بحركة، مكتفيًا بإغماض عينيه ليبتلعه الظلام.

لم تنتظر أن يجيب في الحال أو أن يجيب لو امتد بهما الزمن أبد الدهر.

خارت في مقعدها للحظات بعد أن تيقنت بأن ما في قبضتها انسل من بين أصابعها وتناثر في التراب.

حين تمكنت من جمع شتات نفسها، قامت وهي تحس أنها تسيل ألمًا، وراحت تجري في أزقتها الضيقة هربًا من عجزه واستسلامه.

كانت تظن أن استسلامه سيمتد يومًا.. أسبوعًا.. شهرًا، لكنه سينتفض ثائرًا ويعبر الحواجز بها متحديًا الجميع.. لكنه استمرأ الصمت والاستسلام مكتفيًا بالشعر.

سافر إلى السعودية ليعمل هناك على أمل أن ينساها وتنساه، لكنه سرعان ما سقط في الإغواء كعادة الرجال حين يُهزمون.. هرب إلى أحضان أول امرأة قابلها في الطريق، كوَّم حبها في صندوق، وأغلق عليه مغاليق الذاكرة، وتزوج امرأة أخرى.

وكان عليها أن تنصاع إلى رغبة أبيها وتتزوج من رفعت الشهاوي.. وجد أبوها فيه كل المواصفات لعريس يناسب المرحلة.

ووجدت فيه السلوى عن ضياع الأحلام الصغيرة والأماني المستحيلة وأظافر الموت التي تخربش في قلبها.

بإمكانه أن يجعلها ملكة متوجة تأمر فتطاع.. شقة بمدينة نصر أشبه بقصر للأحلام، خدم تحت إمرتها، سيارة أحدث موديل بسائق.. بخلاف الشراكة التي سيعقدها مع والدها والتي ستساعد في نقلهم إلى طبقة أخرى لا يوجد فيها مستحيل أمام المال.

لم تفكر إن كانت مقايضة الحب بالمال مقايضة عادلة أم لا.. فلم يكن أمامها خيار آخر؟

دهنت حزنها بأصباغ الاستسلام وانصاعت للأغلال تطوق إصبعها الصغير المرتعش!.

بعد أشهر من زواجها شعرت أنها شاخت، ولم تنجح الأصباغ في إعادة شبابها لنضرته.. أشياء كثيرة في حياتها تيبست وسقطت من دولاب أمانيها، أقلها السعادة.

رفعت لم ير فيها إلا جسدًا جميلا قادرًا على إشباع نزواته المجنونة ثم يتركها- إلى أعماله وسفرياته التي لا تنتهي- وحيدة بين جدران زنزانة كبيرة يشاركها فيها بعض الخدم الذين أتوا من بلادهم البعيدة من أجل المال الذي قد يشترون به بعضًا من الحرية والكرامة حين يعودون إلى بلادهم ثانية. وكانت لا ترى نفسها تختلف عنهم في شيء إلا في المسمى الوظيفي فقط، ما بين عاملة منزل، أو عاهرة بدرجة زوجة.

معاملة زوجها لها على أنها جسد فقط يلجأ إليه ليقضي حاجته حالت دون مساعدتها على رعاية الألفة والمودة التي حدَّثتها أمها عنهما قبل الزواج.

في البداية كانت تنصاع له باستسلام.. لكنه لم يكف عن انتقادها.. قال إنها باردة كجسد ميت، تلك البرودة القادرة على إخماد نار بركان وتجميده، تصيبه بالعجز.
ثم أصبح يريد إجبارها على تقليد المومسات اللائي يعرفهن، ويرغمها أن تقوم بحركات لا ترضاها.. يضربها كي ترى الأفلام الجنسية الخليعة أثناء ممارستهما لتتعلم ممارسة الجنس بأشكاله المتوحشة والشاذة.
حين يتركها تتكوم مثل حطام ويرحل إلى أعماله ونزواته مع الشقراوات اللائي يقابلهن في سفرياته البعيدة، وتكاد تتبين أثر مخالبهن الأنثوية على جسده، تتشمم روائح أجسادهن المسكونة بالفتنة والغواية بين ملابسه وأشيائه الصغيرة، تبصق خلف خطوات الطاووس الذي يسكنه وتلعن كل لحظة عاشتها معه.
تنسحب إلى عالم آخر لا وجود له إلا في خيالاتها.. عالم كل مفرداته نسجت خيوطه هناك في مغزل طفولتها وحبها، لتستطيع أن تواصل حياتها المستحيلة، لكنها في الواقع كانت تنسحب من الحياة.. تنساق وراء عيون الأشباح التي خايلت عمتها عالية من قبل وسحبتها معها إلى كوكب التعاسة المرير الذي يسكنه أسرى ذاكرتهم وذكرياتهم، كان شحوبها يزداد يومًا بعد يوم، فرت طيور الأمل بأجنحتها الرقيقة مذعورة بمجرد أن عرف رفعت الشهاوي الطريق إلى حياتها. بدت وكأن لحظاتها التي تحياها ما هي إلا طقوس لازمة لمعانقة طائر الموت الذي جاء ليخلصها من وطء الكابوس الذي يجثم على حياتها، وكانت تشتاق إلى لحظة تحليقها لمعانقته بترحاب.
لكنها تفيق على وخز الصغير الذي بدأ يتشكل داخل أحشائها وحماقات الأسئلة التي لا أجوبة حقيقية عنها.

تخبط وجهها بكفيها، وتصرخ مستغيثة:

- أي جنون سيقودك إليه.. أي جريمة ارتكبها ذلك المجهول القادم.. أي ذنب يقاسمك وزره؟!

تعبث بأدراج دواليبها بحثًا عن دواء يشفيها من ذلك الأسى الذي يجمدها بصقيعه، تنتابها نوبة هياج حين لا تجد ضالتها في الصيدلية، الثلاجة، دولاب الملابس.. تلقي بكل محتوياتهم على الأرض، تركل كل ما يقابلها، تهرع كالمجنونة إلى السيارة، تدير مفتاحها وتنطلق بها إلى أقرب صيدلية، لا تكتشف أنها خرجت دون أن تغير ملابسها البيتية إلا هناك.. تنتظر في سيارتها أول عابر أو عابرة وتترجاه أن يشتري أي مهدئ لها من الأجزخانة. كان الكالميبام calmipam رفيقًا لها منذ تزوجت رفعت، كانت تراه بديلا عن الموت أو الانتحار، زوجها الحقيقي الذي يفتح لها ذراعية ويحتضن أوجاعها وهزائمها ويربت عليهما بحنان، في البداية كان قرص واحد كفيلا بتخليصها من أرقها وكوابيسها التي تداهمها بمجرد أن تغفل عيناها، مع الأيام باتت تحتاج إلى أكثر من قرص لتغلق عينيها وتنام.. كانت تتعجب حقًّا من قدرة عقلها وجسدها على مقاومة النوم، تستشعر أنها باتت على حافة الجنون، تسقط الأشياء من بين يديها وتتحطم، لا تتحمل كلمة من أحد، حين أعطاها رفعت أول شريط لم تكن متحمسة لتجربته، لم تتوقع علاجًا يقدمه لها رفعت الشهاوي، قال إنه يأخذ قرصًا كلما ركب الطائرة في رحلة من رحلاته الكثيرة للتخلص من فوبيا الطيران بالنوم طوال الرحلة.

لم تشأ أن تجربه في وجود رفعت، في داخلها كانت ترى في عصبيتها وهياجها عقابًا له حتى لا يهنأ بلحظة في وجوده معها، حين رحل في إحدى سفرياته ظلت تبحث عن شريط الكالميبام calmipam حتى وجدته وابتلعت قرصًا، وظلت تنتظر وتنتظر دون فائدة.

لعنت نفسها حين صدقت للحظة أن رفعت قد يكون مسكنا لآلامها، ظلت تصرخ وتستغيث دون أن يجيبها أحد، حتى خذلها صوتها ولم يعد قادرًا على الصياح، وتداعى جسدها وسقط مستسلمًا على السرير البارد. أغمضت عينيها بكل ما عرفته من استسلام ويأس، وأشباح بائسة توشوش في أذنيها.

لم تصدق نفسها إلا بعد أن أيقظتها أمها.. فتحت عينيها باندهاش حين وجدت يد أمها تفحصها وتهزها لتوقظها، استطاعت بعد لحظات أن تُجّمع صورة أبيها الواقف إلى جوار أمها كشبح.

- أمي.. هل حدث شيء؟!

- قلقتينا عليك.. تليفونك لا يرد منذ يومين، والخدم قالوا إنك نائمة، ولم أصدقهم.

من حينها أصبح الكالميبام calmipam الصديق والأخ والأب، رمز الذكورة الحانية فوق الأرض، حبة واحدة تريحها من غباء هذا العالم وغباء رجاله وقسوتهم. لكن بمجرد أن عرف الطبيب بأمر حملها، سألها إن كانت تتناول أية أدوية؟

أجابت ببراءة:

- لا.

ثم عادت وأردفت:

- أحيانًا أتناول مسكنًا أو مهدئًا لأستطيع النوم.

لكن الطبيب حذرها من تناول مثل هذه الأشياء أثناء الحمل، فهي قد تؤدي إلى تشوه الجنين.

لا تعرف لحظتها لم بدا التشوه جاثمًا مجسدًا أمام عينيها، لا يحتاج جنينها لأدوية تصيبه بتشوهات أخرى، يكفي ما سينتقل إلى جيناته من مرض التشوه بحكم العوامل الوراثية.

كابدت وعانت لأيام وليالٍ قاطعها فيها النوم، لكنها لم تستطع.. جرت إلى شريط البرشام وابتلعت قرصين دفعة واحدة.

- أنتِ مجنونة.. ليس من حقك تشويه ابني.

صرخ فيها زوجها وهو يختطف الشريط من بين يديها، ظل يسب ويلعن ويجمع كل أنواع الدواء ويلقيها إلى سلة المهملات، لكنها لم تكن تعبأ بصياحه وسبابه، تركته وانسحبت في هدوء إلى سريرها، وظلت تنسحب وتنسحب وتنسحب.

لكن مهما طال انسحابها تفيق على واقع لا تريد أن تحيا لحظة واحدة تحت سمائه.

كادت في المرة الأخيرة أن تضعف أمام شبح عالية.. ظلت توسوس لها لتعطي روحها فرصة الهرب من الحياة الجرداء التعيسة، تتحسس خرائط أنوثتها لتستجيب وتدغدغها الرغبة فتفرغ شريط الكالميبام calmipam وتضع حباته الكاملة في كفها، وتهم برفعها إلى فمها، لكنها تفيق على وخز الصغير الذي بدأ يتشكل داخل أحشائها وحماقات الأسئلة التي لا أجوبة حقيقية عنها.

تلقي بحبات الشريط إلى الأرض، وتخبط وجهها بكفيها، وتصرخ مستغيثة:

- أي جنون سيقودونكِ إليه.. أي رذيلة تدفعك ذكورته الرعناء دفعًا للسير في طريقها.. وأي ذنب للصغير القادم؟ أية غواية يقودونكِ إليها؟!

ربتت على بطنها وظلت تنشج بلوعة وقامت كالممسوسة، وقالت إنها لن تبقى في هذا الجحيم للحظة واحدة.

لكن من يسمح لكِ يا سلمى؟!

حين سألتها أمها عما حدث ظلت تبكي وتحكي دون حساب.. تركت الكلمات المعذبة المجروحة تستعطف قسوة صمت أبيها وحياديته!

بعد أن فاض نشيجها وغلبها، طفح نهر من الدموع والدم، أبوها قال إنه لا يحب الفضائح و"الجُرس"، لا توجد امرأة عاقلة تترك بيتها بسبب أوهام في رأسها وكلام فارغ زرعته الأفلام والمسلسلات برؤوس الصغيرات ولم تكن تعرفه النساء على أيامنا، أو تتجرأ إحداهن بالإفصاح عنه.

- لكنني أكرهه ولا أطيق الحياة معه!

صاحت معترضة في وجه أبيها، لكنه نهرها بحزم:

- لا داعي للمجادلة.. عودي إلى بيت زوجك الآن قبل أن يعود ويشعر بغيابك.

كانت ممزقة بين صورتين يهتزان أمام عينيها ويكادا أن يتطابقا.. نفس ملامح الرجل السلطوي رأتها لحظتها في عيني أبيها كما رأتها في عيني رفعت الشهاوي، لا فرق بين زنزانة يمتلك مفتاحها الأب، أو زنزانة يمتلك مفتاحها رجل آخر يملك نفس السلطوية تحت مسمى الزوج.

جرجرت خطواتها المنسحقة عائدة إلى حضن وحدتها وحزنها.

لم تجد يدًا أخرى تحنو على ضعفها وهزائمها إلا تلك الكيماويات التي بإمكانها أن تدلك مفاتنها المنطفئة، وجعلتها تكره الساعات التي تفيق فيها، وتتعجل انقضاءها لتعود إلى عالمها المرصع بالأشباح.

حتى المولود الجديد الذي قالت أمها عنه إنه سيملأ حياتها عليها، ولن يجعلها تفكر في شيء آخر، لم يقطع عاداتها، رغم وخزات النفس ومرارات الأسئلة التي تواتيها عقب إفاقتها. حتى باتت تعيش في هروب مستمر، من نفسها، ومن زوجها، ومن أبيها، ومن العالم أجمع.

حتى صغيرها لم تكن تستطيع النظر بتعمق إلى عينيه الصغيرتين!

كانت تستشعر أنها تسير عارية وملوثة بذنب لم تكن تعتقد أنها ارتكبته بإرادتها.. حياة ناقصة ومفتوحة على الاحتمالات كلها، بما فيها الضياع لها ولصغيرها الذي لم يرتكب ذنبًا إلا أنه جاء لأب آخر غير أنور شفيع.

المخدر إذن مهما كان مفعوله لا يمثل علاجًا.

رغبتها في الحياة ضاعت في غياهب الإهمال، وضاع ذلك الشعور المتوهج الذي كان يعطي لحياتها إيقاع الموسيقى، وتحوّلت إلى جرح سيظل مفتوحًا يتقيح باللوعة والحسرة.

لن ينقذها من ضياعها إلا شخص واحد تركها وهرب بعيدًا هناك خلف الكثبان الرملية وسفوح النفط السائل..

أنور شفيع.

ومع سماع ذبذبات صوته تتردد في أذنيها شعرت أنها تستعيد خفتها، وتحلق كطائر صغير يتعلم الطيران.

ألقت بشرائط الكالميبام calmipam إلى سلال القاذورات، وامتطت سحابة محلقة إلى السماء.

- علمني يا أنور أن أبقى نقية كصباحات أيامنا الفائتة.. أنا تائهة.. ضائعة.. أنحدر من قمة الجبل إلى صخور السفح ولا يد تتلقف جسدي الهش وتضمد جراحي.

كل شيء حولها أصبح سارًا مفرحًا، حتى لعنات زوجها لم تعد تعبأ بها.. أغمضت عينيها عن حياتها واستعادت ضفيرتها وفيونكة شعرها الحمراء من حقيبة الذكريات، وعادت تلك الطفلة التي تحلق كفراشة.

لكن من قال إن أحدًا يُمكِّن الفراشات من التحليق إلى الأبد؟!

حين اكتشف رفعت مكالماتها السرية مع أنور، هاج كثور حقيقي على استعداد لتحطيم كل ما حوله.. ألقى على أذنيها سيلا جارفًا من البذاءات وظل يضربها بجنون، لكنه حين نطق بكلمة الطلاق شعرت بتشافي جسدها من كل آلامه وقروحه.

سمعت رنين سلاسل قيدها وهي تتساقط عن معصميها أمامها، وتنفست طعم الحياة من جديد بعد أن نسيت معناها.

هرعت تحمل صغيرها وفرحها المصحوب بالوجع إلى أحضان أمها وقد أصابتها هستريا البكاء والضحك:

- دا مش بني آدم يا أمي.. ظل يضربني حتى فقدت معنى الألم، ثم طلقني ورحل.

أبوها لم ينطق بحرف، ظلت عيناه معلقتين بالجروح والضمادات التي غطت كل مضغة بجسدها، وشعر بطائر يئن في صدره ويمنعه عن الكلام. احتضن حفيده إلى صدره وركل الفراغ الدامع.

ليالي كاملة مرت كدقائق وهي تحتضن هاتفها، تحكي لأنور كل لحظة ألم عاشتها منذ ضعف أمام أمه وحوط رأسه المنحنية بكفيه ولم ينطق.

قال إنه سيعوضها عن كل لحظة أسى عاشتها، سيصطاد لها يمامات الحب ويقدمها كقربان تحت قدميها، سيجعل حياتها سيمفونية من القشعريرة اللذيذة. قال إنه أعد لكل شيء، في إجازته القادمة سيخطفها إلى عش لا تصل إليه الغربان.. يطويان صفحة الماضي بكل ما فيه ويتزوجان.

ظلت تتعجل الأيام والليالي الطويلة التي لا تريد أن تمر.. لكن قبل أن تنقضي عدتها حضر رفعت الشهاوي بصحبة أبيها، وقال إنه لا يستطيع أن يعيش بدونها.

عصام هو أهم ربح حصل عليه في حياته، ولا يريده أن يعيش بعيدًا عن أبويه.. لا يعرف كيف امتدت يداه بكل ذلك العنف إليها، لكنه في النهاية يحبها وعلى استعداد أن يفعل ما تشاء من أجل إرضائها.

أبوها لم يقاطعهما بكلمة.

تركه حتى قال كل ما عنده واحتضن صغيره ورحل.. حينها جلس إلى جوارها ودون أن ينظر إلى عينيها قال:

- يا ابنتي أنا لن أعيش أكثر مما عشت، لم يعد لي هدف في الحياة إلا الاطمئنان عليك وعلى صغيرك. رفعت أخطأ، لكنه في النهاية رجل،

والرجال دائمًا ما يرتكبون الحماقات في حق من يحبون، لكنهم سرعان ما يعودون إلى أعشاشهم بالعشاء لزوجاتهم وصغارهم.. قد تظنين أننا أصبحنا أكثر قوة حين رزقنا الله بالمال ووسَّع تجارتنا، لكن الحقيقة أننا أصبحنا أكثر ضعفًا.. نحن أصبحنا مثل صاحب القطيع الذي تلتف حول قطيعه الذئاب وتريد أن تغفل عيناه لحظة لتنقض على القطيع وتلتهمه. رأس المال جبان ويحتاج إلى من يحميه من الذئاب.. ولن يتصدى لهم إلا ذئب مثل رفعت الشهاوي. أنا لا أريد أن أجبرك على شيء، سأترك الخيار كله لك، لكن من حق عصام أن يعيش في كنف أبيه حتى لو كان أبوه ذئبًا.. فلا مكان للحملان في زماننا.

لا تعرف لِم طافت صورة أنور شفيع برأسها حين جاءت سيرة الحملان على لسان أبيها.

تمنت لحظتها لو نبت لها نابان، وغرزتهما في لحمه، وعوت كذئبه حقيقية نهمة لافتراس حمل وديع تركها للضياع.

***

(5)

امتلأت البلدة بكائنات جارحة لا هم لها إلا التهام الضعفاء والفقراء ليزدادوا فقرًا وبؤسًا

تنفس الصعداء أخيرًا.. أخرج فيلم جوليا روبتس الجديد الذي أعطاه له سيف ناصر، وقال إنه لم يعرض في أية دور سينما عربية بعد.

وضعه في الفيديو، وضغط على زر التشغيل.

مر الوقت دون أن يشعر بما يحدث من حوله، لم يسمع سوى همهمات وأنَّات غير واضحة اعتاد سماعها كل نبتشية، دفعته مع استمرار أزيزها في أذنه إلى رفع صوت الفيديو حتى يتخلص من وخزاتها، وانشغل بمتابعة الفيلم عنها.

يتوقع بعض المناوشات المعتادة بين المحابيس والرقباء والأومباشية.. أمور ألف حدوثها كل يوم. ومع الوقت أصبح محايدًا تجاهها.

سيطر عليه إحساس بأنه لن يغير العالم، لن يمسك بريشته ويلون العالم بألوان مبهجة لا وجود لها إلا في أستوديو بعيد لفنان يبحث عن نفسه بين أكوام اللون الرمادي. لن يمتلك جناحي ملاك، أو معجزات القديسين ليرش على الأرض مسحوق العدالة الذي لا وجود له إلا في كتب الخيال.

الأمور بأقسام الشرطة تسير وفق ناموس أكبر منه، ومن رئيس المباحث ومدير الأمن، وربما أكبر من وزير الداخلية نفسه.

لن تسعها لوحة فنية واحدة ولو شارك في رسمها كل فناني عصر النهضة.

عندما كان يشارك أصحابه انتقاداتهم للمعاملة التي يلقاها المواطن داخل أقسام الشرطة، لم يكن يعرف أشخاصًا مثل سيد فشَّه، وكيلون، وسنجه، وحمادة طرنش.

هؤلاء بملامحهم التي صبغها الزمن بالحرمان والقسوة والوجع، وتشوهاتهم الداخلية والخارجية جعلوه أكثر أيمانًا بنظرية لومبروزو من أي وقت سابق.

بعضهم يتقبَّل شتمة ثقيلة بسعادة من لعب برأسه البانجو، وآخرون يتقبَّلون صفعة على القفا من الضابط على أنه مزية لا يحصل عليها غيره من المحابيس في الحجز.

عندما عمل بالمباحث مع عمر زاهر- الذي يصفونه بالجزار، بسبب ما أشيع عنه من أنه أمهر من يستخلص الاعترافات من أفواه المتهمين وأجسادهم، دون أن يترك أثرًا يدينه- تغيرت نظرته عنه.

لم يجده بتلك البشاعة التي يصورونه بها.

يقول إن خبرته في العمل بالمباحث جعلته يعرف الجاني من البريء.. ويعرف الصادق من الكاذب.

كل جريمة لابد لها من مجرم.. إذا فشل ضابط المباحث في تقديم المجرم للعدالة، فعليه أن يستقيل ويبحث عن عمل آخر.

إذا أجلست المجرم أمامك ومعه كل أدلة إدانته وطلبت له شايًا وأعطيته سيجارة لن يعترف بجريمته، ولن يحترمك.. انتزاع الاعتراف مهارة لا يمتلكها إلا أشخاص مثلي خلقوا للعمل بالمباحث.

حاتم كان يجلس منزويًا في مقعده.. يستمع ببلادة إلى نظرية عمر زاهر في انتزاع الاعتراف، دون موقف محدد تجاهها.

انتبه ساعتها إلى أنه ليس في المكان الذي يجب أن يكون فيه، مكان لم يختره لنفسه، اختاره أبوه ليكمل به سطوته الاجتماعية بين أهله وبلدته.

كان الحاج فهمي يستشعر تغيرًا اجتماعيًا سيصبح فيه المال كل شيء.. مع دعوة السادات للانفتاح امتلأت البلدة بكائنات جارحة لا هم لها إلا التهام الضعفاء والفقراء ليزدادوا فقرًا وبؤسًا، وتحت وطأة الحاجة إلى

إشباع البطون الجائعة سافر من سافر إلى بلاد النفط، وعادوا محملين بالدولار الذي يستطيع بغوايته أن يشتري أي شيء، وكل شيء بمن فيهم البشر. تبدلت معالم البلدة، وازداد ثراء من تاجروا في العملة والمخدرات واللحوم الفاسدة، ومع انتشار اللحى والجلابيب القصيرة والنقاب، لم يعد أحد يسأل عن أصل هؤلاء أو العائلات التي ينتمون إليها، بل أصبح كل ما يشغل غالبية الناس السؤال عن حجم أرصدتهم في البنوك، وعدد عماراتهم التي تطاولت وارتفعت، وانتشرت كورم خبيث في جسد البلدة. وصار البعض الآخر مهمومًا بالتفتيش عن العقائد والعبادات كأنهم موكلون من الخالق لمحاسبة خلقه.

لن يتمسك أحد في هذا البلد بشعارات العائلات العريقة و القيم الأصيلة التي نشأ الحاج فهمي عليها وتربى في رحابها. وإذا لم يستطع الحاج فهمي اللحاق بآخر عربات القطار والوصول إلى المال الذي يضمن له ولحاتم من بعده أن يبقى في صدارة المشهد الاجتماعي، فعليه أن يتمسح بأطياف السلطة.. أي سلطة، تجعل القاصدين لا ينقطعون عن باب الحاج فهمي وورثيه من أجل حل مشكلة أو التوسط عند مسئول كبير لتعيين ابن أو جار أو صاحب في وظيفة، وأن يبقى لهم رجالهم داخل جسد الدولة التي باتت تبيع أعز ما تملك لكل صاحب سلطة أو مال.

وحتى إن كان التحاق حاتم بالشرطة لن يستطيع أن يحقق شيئًا مما يدور في مخيلة الحاج فهمي، فيكفي أن يصنع ذلك الوهم في رؤوس البسطاء من أبناء بلدته ويزكيه.

بينما حاتم الذي كان يحلم أن يصبح فنانًا أو شاعرًا مثله مثل أصحابه سيف ناصر وشوقي وأنور شفيع، وجد نفسه مطالبًا أن يصبح جلادًا يمسك بيديه عددًا من الكلابشات التي يقيد بها كل من حوله.

حتى شاهندة وضعها في زنزانة وتركها وحيدة، تغزل من خيوط وحدتها ثوبًا تتدثر به من الصقيع والثلج الذي يحوط حياتها.

تلك البرودة التي دبت في أوصالهما، لن تفلح معها باقات الزهور وأضواء الشموع وموسيقى love story.

كانت هوة عميقة تتسع بينهما، وهي تحاول أن ترسم له وجهًا ليس له. ذلك الشاب الخجول الذي يجيد أسر قلوب الفتيات بوسامته، والذي رأته لأول مرة في حفلة عيد ميلاد سها، وأسرها في قيده مذ قطف زهرة تيوليب حمراء من الحديقة وقدمها لها، حينها سألت صديقتها المشغولة في حصد الهدايا والقبلات عن ذلك المجنون الذي يقطف الأزهار من شجيراتها.

- من تقصدين؟!

سألت سها، وعادت لتتلقف الهدايا والأحضان من أهلها وأصحابها، دون أن تجيبها.

لم يعطها حاتم الفرصة لتشد سها بعيدًا عن الزحام وتعيد سؤالها، فوجئت به أمامها، يمد يده بزهرته إليها.

مدت يدها، لكنها سرعان ما ترددت وسحبتها قبل أن تمسك بزهرتها، هزتها ارتعاشة خفيفة قبل أن تسترد أنفاسها، تطلعت إلى عينيه، فغطت ابتسامة ساحرة وجنتيها، وقالت:

- يبدو أن درس عدم قطف الأزهار فاتك في المدرسة.

لم يتمالك أن يكتم ضحكته التي استرعت انتباه الحاضرين لهما، لكنهما كانا بعيدين عن كل ما حولهما.

- هههههه.. ليس ذنبي أنا، اسأليها.

- من؟

- زهرة التيوليب.. لقد سمعتها تنادي وتستغيث قائلة: حُبكِ لا يقاوم.

أمسكت الزهرة بين يديها، غابت للحظات شعرت فيها أنها تحلق بين ملائكة صغار يقطفون النجوم لتقديمها إلى حبيباتهم، ولم تفق إلا على صوت سها، وهي تخطف الزهرة من بين يديها، وتشير إليه قائلة:

- تقصدين حاتم فهمي، زميل وجدي.

حينها عرفت أنه قطف قلبها أيضًا.

يستشعر الآن أنها تستدعيه من أفلام الأبيض والأسود، من ذاكرة بعيدة طمست ملامحها المجنزرات والعربات المصفحة، ولم يبق منها إلا أشباح وخيالات.

رأسه الآن تشتعل بألوان بركانية تزين جدران غطتها ستائر سوداء وتطل منها رؤوس الأفاعي وشياطين الفتنة بأثدائها النافرة. بقع من الأحمر القاني ودقات طبول مهولة تستدعي مارده الكامن في محبسه، يريد أن يفجر كل الغضب المحتشد داخله مع ضرب سياط سودانية قاسية كما يحدث في فيلم سادي.

لا وجود لرومانسية عششت في رأس شاهندة بين عتمة الزنازين ومقاصل القتل الدموي.. لا وجود لحاتم فهمي الذي تريده. سيظل الصقيع حائلا بينهما.

ستبحث في كتب العرافين وتطرق أبواب الدجالين بحثًا عمَّن يروض لها حاتمها، ويعيده إليها من كهفه البعيد الذي سرق موسيقى الحياة وبهجتها، وأبدلها صقيعًا ممتدًا، في قسمة غير عادلة.

لا يأتيها إلا نذرًا، ساعتها تستشعر أنه تلميذ بليد يؤدي واجبًا روتينيًا ثقيلا لا رغبة له في تأديته.

غيابه لأيام عن البيت في مهام بعيدة يعود بعدها دون شوق الغائبين للقاء أحبتهم، شعرت بعدها أن العمل ليس مسئولا وحده عن تغير حاتمها، وأن ذلك الانسحاب البطيء الذي يمارسه زوجها من حياتهما

الزوجية وراؤه أسباب أخرى خلاف الأسباب التي اعتاد حاتم ترديدها على مسامعها بغير اكتراث كلما فاتحته في الأمر. حينها قررت أن تتصل بزملائه في العمل عسى أن تجد عندهم إجابة تخفف من وجع الوخزات في قلبها وترشدها إلى طريق تسلكه لاستعادة حاتمها وحياتها، أخبروها أن حاتم بك عادة يأخذ يومي الخميس والجمعة إجازة من العمل طالما لا توجد حالة طوارئ تستدعي وجوده.

أخذت الأفكار والهواجس تتلاعب بها بلا رحمة، حاولت التخلص منها بري النباتات والزهور الموضوعة في الأصص بالشرفة، لكن أفكارها كانت رغمًا عنها مشدودة نحو اتهامه بجريمة أكبر وراء إخفائه سر غياباته المريبة عنها وعن البيت.

مع مرور الأيام تزايد إحساسها بإدانته، فباتت تتصرف معه بعدوانية لم تبرر له سببها، كما لم تستشعر أن حاتمًا يشعر بشيء مما يموج داخلها ويقارب على الانفجار، مما ضاعف من شعورها بالأسى على حياتها التي ما كانت إلا كسراب عميان.

لم يكن بإمكانها أن تمضي على هذا النحو الذي يقودها إلى الجنون طويلا، قررت أن تتبعه لتفض السر الذي حرص على الاحتفاظ به منذ زواجهما، برغم صغيريه اللذين اعتقدت في قدرتهما على تذويب جبال الثلج التي تفصل بين أبويهما.

مراقبتها له، واكتشافها أنه يذهب إلى شقة صغيرة ببني سويف اتخذها مرسمًا له.. لا يرسم إلا بورتريهات لأجساد عارية.

تثور في وجهه.. لماذا يقطع كل هذه المسافة من القاهرة إلى بني سويف، من أجل ماذا؟.. وكيف بعد كل هذه السنوات لا تعرف شيئًا عن زوجها الذي حبسها في زنزانة، واستعذب ممارسة السادية معها؟!

يعترف أنه هو أيضًا حبيس زنزانة والده، كيف حبسه لأيام في حجرته دون أن يغادرها، ومنعه من الذهاب إلى المدرسة، أو مقابلة أصحابه، حينما شاهد رسمًا بالرصاص لجسد امرأة عارية بين كتب دراسته. ماذا لو عرف أنه هو من رسمها؟! كيف وضع النجوم على كتفيه كمسامير ربطته بالأرض ومنعته عن التحليق. كان يتمنى أن يصبح طائر سنونو صغيرًا.. يحلق ويحلق دون أن تستطيع يد أن تصل إليه.

- لا تعرفين يا شاهندة معنى سلطة الأب في بلادنا.. تلك السلطة التي تجعل منا مسوخًا لا أكثر.

لن يعرف الافتتان إذن الذي يتكلم به عمر زاهر عن وظيفته، سيراها مجرد وظيفة روتينية لا تختلف عن غيرها من الوظائف، عليه أن يقضي ساعاتها حبيسًا بين جدرانها طوال فترة الدوام.

أفاق حاتم على الباب الذي انفتح واندفع منه الرقيب ناحيته.. ضغط على زر الريموت فتوقف الفيديو على صورة البطل يقبل البطلة قبلة طويلة.

- إيه يلا.. أنا مش قلتلك محدش يدخل عليّا المكتب؟

اقترب الرقيب غير عابئ برغبة الضابط حاتم، وهمس في أذنه:

- يا باشا فيه مشكلة في الحجز.

تقمص حاتم صورة عمر زاهر كممثل رديء وهو جالس في مقعده، قائلا:

- مشكلة إيه يا روح أمك؟

- تقريبًا حد من المحابيس حرق نفسه.

قال الرقيب وجسده يرتعش ارتعاشه خفيفة.

قام حاتم بتثاقل من فوق المقعد.. راوده هاجس أن يكون كلام الرقيب نوعًا من التهويل والمبالغة. الحرق أبشع أنواع التعذيب التي عرفتها البشرية، فمن ذلك الذي يجرؤ على حرق نفسه، ولماذا؟!

تبدأ الأشياء صغيرة ثم تكبر، خطوة تقود إلى أخرى ولا تعرف إلى أين تنتهي بك؟!

انزاح وسقط عن وجهه قناع عمر زاهر، فبدا تحته وجه آخر جمَّده الخوف والقلق:

- نبتشيه سودا من أولها.

قال حاتم دون أن يلتفت إلى الرقيب الذي صحبه إلى حجز المحابيس، حيث تجمع الرقباء والأومباشية والعساكر.

حين شاهدوه تفرقوا إلى صفين وأفسحوا له طريقًا سمح له برؤية المحبوس فوق الأرض.. قدماه كانتا مقيدتين ويداه أيضًا، ويشدهم حبل معقود بقضبان نافذة الحجز.. يرقد المسجون مستسلمًا بعد أن توقف بدنه عن التشنج وتجمدت ملامح وجهه المتقلصة، وآثار متفرقة لحروق شديدة بمناطق مختلفة من جسمه.

لمح بعينيه آثار الكيروسين المتدفق على الأرض، حدق في عيني المحبوس الفزعتين قبل أن تمر على ذهنه كلمة قتل.

نظر مذهولا إلى العساكر والرقباء من حوله، وجدهم يحدقون فيه.. ينتظرون ماذا سيفعل ضابطهم.

اقترب في حذر من المحبوس، فخاف أكثر واندهش من كم الحروق بجسده.. وقف متململا وكشَّر في غضب صارخًا فيهم:

- يا ولاد الكاااااالب.. مين اللي حرقه؟!

نظروا إلى بعضهم البعض وتراجعوا خطوة إلى الوراء دون أن يتكلم أحد. كان كل واحد منهم تدور في رأسه فكرة، ويشطح بها خياله.

البعض ممن تمرس في العمل بالقسم كتم ضحكاته حين رأى الخوف يطل من عيني الضابط حاتم، بينما همس في نفسه: (مُستجد بجد.. أين هو من عمر باشا زاهر الذي لا تهتز له شعره مهما حدث في القسم).

آخرون كانوا يفكرون في أنفسهم، قالوا: إن حدث للمحبوس شيء ستنقلب الدنيا فوق رؤوسنا، الناس قلوبها جمدت كصخرة، ولم تعد ترهبهم الشرطة أو الحكومة، سيأتي صحفيون كبار ومحامون ومنظمات حقوقية من القاهرة اعتادت على الظهور كلما وقعت حادثة في قسم شرطة ويشجعون أهله للتقدم بشكوى، حينها سيبحثون عن ضحية، والضحية دائمًا ما تكون من الصغار.. الكبار لا يستطيع أحد أن يقترب منهم.

ثم يعودون ويطمئنون أنفسهم قائلين: عمر بك لا يترك رجاله.

حارس الحجز اقترب مترددًا من حاتم قائلا:

- يا باشا إحنا لقيناه كدا.. محدش جه ناحيته.. وشويه وهيقوم ويبقى زي الحصان.

- أنا هاحاكمكم كلكم.

قال حاتم وأسرع إلى حجرة المباحث ليطلب المأمور.

لِم لم يسأل أحد نفسه أين كان رئيس المباحث؟

***

لمح ظرفًا أصفر يحتشد بقصاصات صحف أصفرَّ ورقها واهترأ، سحبها برفق ومر على صفحاتها سريعًا. وتوقف عند أحدها.

مر على حروفها حرفًا حرفًا، قرأ العنوان الصغير الذي احتل نصف عمود في صفحة داخلية من الجريدة، أعاد قراءته بصوت مسموع:

(براءة حاتم فهمي من قضية التعذيب).

شعر لحظتها براحة، أعاد القصاصات إلى مكانها، ووضع الظرف بالحقيبة وأحكم غلقها.

حملها وصعد فوق الكرسي الصغير، وألقى بها فوق الخزانة غير عابئ بالتراب الناعم الذي ظل يتساقط بعشوائية.

***

(6)

ظلت سيرتها تحمل معها رائحة البكارة والشوارع الطينية الطيبة

عند باب الطائرة وقف برهة يتطلع إلى السماء الزرقاء الصافية قبل أن يهبط درجات السلم ويغادر محطات اغترابه، ويلامس بقدميه أرض الوطن.

لم يكن بمقدوره أن يصف حقيقة شعوره، وما يمور داخله من أحاسيس متناقضة.

فرح غامر يحسه ويقرأه في عيون العائدين، حالة عاطفية لا يستطيع كبح جماحها جعلت الحياة تنبض في شرايينه من جديد، حالة تخالف كل ما هو واقعي، تخالف كل ما عاشه من خيبات حتى غادر زنزانته الضيقة بحثًا عن ساحات بلا جدران.

لكن هل يمكنك أن تجد حريتك بعيدًا عن وطنك؟

كثيرون وجدهم هناك يحملون زنزاناتهم معهم، أنت أيضًا كنت تحتفظ بزنزانتك معك، تأسر روحك التي ما عادت قادرة على التحليق.

يشعر أن الوطن أخذ منه كل شيء.

في البداية أخذ أباه مع من ضحوا بحياتهم ليكتمل الجسد صحيحًا عفيًا، ليكبر ويشتد عوده.

سبعة آلاف عام من التاريخ لم تكن جدارًا كافيًا لصد العدو، التاريخ وحده غير قادر على حمل البندقية والوقوف على الجبهة لحماية الحدود، غير قادر على حرث الأرض وزراعة البهجة، غير قادر على تشغيل تروس المصانع، غير قادر على الدخول إلى المعامل واختراع التقدم.

الإنسان وحده خضَّب بدمه الأرض ليغسلها من وسخ الهزائم.
والحصاد بعد كل هذه السنين؟
لا شيء.
الإنسان آخر ما يتذكره الوطن في اهتماماته الكثيرة.
شجن هائل جعله يدخل في حوار سقراطي مع نفسه.
الوطن حرمه من دخول الامتحان واللحاق بأصحابه وزملائه.
جعلهم يسبقونه دائمًا بخطوة.
ماذا استفاد الوطن حين حرمه من دخول الامتحان، ما الجرم الذي فعله ليسرق عامًا من عمره، وليته اكتفى؟!.. بعدها سرق العمر كله.
الخروج في مظاهرة أو رفع لافتة كافٍ في هذا الوطن لتبرير كل شيء.
العصي الغليظة والقنابل المسيلة للدموع والرصاص المطاطي والقسوة اللا متناهية، والجدران العالية التي تجعلك تفكر في الطريقة التي تنسى بها هذا الوطن.
ليته كان ينتمي إلى تنظيم ما، ساعتها كان سيغفر له قسوته معه، سيجد له المبرر ويتعايش معه بسلام، لكنه لم يكن إلا فرخًا صغيرًا خرج إلى الحياة ببراءة وأراد أن يعيشها بعفوية.
لم يكن في ذلك جرم ما. فلِمَ أخذ منه سلمى؟
أخذ كل ما كتبه من قصائد واقتطفه من سعادات صغيرة في باحة الجامعة أو محطات المترو أو كازينو قصر النيل، وألقى بهم في محرقة القمامة.
لم يترك له إلا وريقات بللها الدمع فذابت حروفها واختلطت، أزهارًا جفَّت وفقدت رائحتها. وألمًا كبيرًا لا يداوى.
في حياة كل منا حب لا ينسى مهما حاولت الأيام إزاحته بعيدًا في جب الذاكرة، مهما حاولت امرأة أخرى أن تجتثه، سرعان ما ينبت ويطل برأسه من الشقوق البعيدة.

ظلت سيرة سلمى تحمل معها رائحة البكارة والشوارع الطينية الطيبة، رائحة المدارس والبنات ذوات الفيونكات الحمراء والحقائب الصغيرة التي تداري خلفها طفولة النهود وأحلامًا بأجنحة محلقة.

الوطن أخذ منه وظيفته، استكثر عليه أن يتواجد بين تلاميذه، انتزعوه من الفصل وألقوا به خلف مكتب في حجرة تكتظ بالعاطلين وناسجات التريكوه ليتعلم حكمة قتل الوقت والفراغ. ورغم ذلك يقبض على نفسه متلبسًا بالفرح لمعانقة الوطن.

هل لأنه يعرف أنها تنتظره هناك خلف بوابات المطار القديم؟

سنوات من صحراء الصمت عاشها مع مروة. يتجنب أن يلتقيا بعيونهما فترى سلمى في عينيه. كان يعرف أنها تحس بامرأة أخرى تنازعها قلب زوجها، امرأة تملك الذكريات والحلم والخيال. أما هي فلا تملك إلا الحاضر الذي سرعان ما يفلت من أيدينا دون أن نشعر، وطفلين رائعين، وواقع يزدحم بالخلافات والرتابة. لكنها قررت ألا تستسلم لامرأة من خيال.

كانت تقول لنفسها إن الرجال يحبون أن يعيشوا كذبة صغيرة يخترعونها ويصدقون أنها حقيقة.

حتى بعدما عرفت سلمى، وعرفت حكايتها مع زوجها، وعرفت أن المرأة التي تنافسها امرأة من الماضي البعيد الذي يحرص الناس على تجميله بالألوان والشجن، زاد يقينها بانتصارها.

ظلت تردد مع نفسها أن الماضي لا يعود، يظل حبيسًا في الأدراج المغلقة، ولا يملك تحطيم أسواره والقفز بالزانة للحاق بالحاضر، لن تضحي سلمى بابنها وزوجها من أجل وهم.

الرجال من السهل أن يكسروا أبواب زنزانتهم الزوجية، لكن سلمى لن تترك قفصها الذهبي، وتطير من أجل حلم قديم خطّته يومًا بدفتر محاضراتها.

تتألم وتردد في نفسها تلك الكلمات مثل مخدر يساعدها على النسيان.
لكنها لا تنسى.
فكرت أن تتصل بزوجها، لن يكون صعبًا أن تحصل على رقم رجل أعمال مثل رفعت الشهاوي. ستصرخ فيه، وتقول له إن امرأته تخونه مع رجل من الماضي، رجل بعض حطام وأوجاع وألم، رجل لا يستطيع أن يقدم لها شيئًا، لأنه عاجز عن تقديم المساعدة لنفسه.
الذين يعيشون في الماضي كائنات هشة أشبه بأفراخ صغيرة، بمجرد أن تلمسها الريح يتساقط ريشها، وتسقط من سماواتها إلى الأرض بغنائها الحزين الممطوط على ما ضاع.
لكنه رجلها هي. لماذا تريد سرقة أغنيتها الوحيدة التي تجمِّل حياتها بشيء من البهجة؟! بإمكانها أن تختار أي رجال العالم إلا أنور شفيع.
لكن إن علم أنور، هل سيسامحها؟
سألت، لكنها لم تتمالك حواسها وعقلها لتنتظر الإجابة، وجدت نفسها تدير قرص الهاتف وتستمع إلى رنينه المرتجف، سمعت صوتها بالجانب الآخر:
- ألو.
- .....
- ألوو
فكرت أن تضع السماعة وتستمر في مقاومتها الصامتة، لكن الحروف تسابقت في الاندفاع كحمم بركانية تفجرت بعد أن ظلت دهورًا حبيسةَ باطنٍ مغلقٍ على نفسه، لم تدر وقتها بالكلمات التي خرجت منها.
صرخت وهددت وترجت، ضحكت وسخرت منها ومن زوجها ومن العالم أجمع، وبكت، ثم وضعت السماعة بهدوء واستلقت على سريرها وأغمضت عينيها براحة افتقدتها منذ وجدت رسائلها بهاتفه المحمول.

لم يكن لها ذنب إلا أنها قابلت الشخص الخطأ في المكان والزمان الخطأ.
أبوها كان مديرًا للمدرسة التي عمل بها أنور بالمملكة، قضى عشرين عامًا في السفر ولم يكن له في الحياة إلا ابنته.
تعرَّف عليها في زياراته لأبيها وسرعان ما أحس بشيء يجمعه بها، ربما كان كل منهما يعيش غربة ما، غربة مع نفسه، قبل أن تكون غربة مع الآخرين.
سافر الأب ليلحق بطابور المكتظين على بوابات المطار من أجل المال الذي هرع الجميع إلى جمعه واكتنازه، ونسى في رحلته ابنته الوحيدة، كيف ستعيش، وكيف ستدبر أمورها في مجتمع يوجه نظراته وسهامه دائمًا للمرأة، فما بالك إن كانت امرأة شابة ووحيدة؟
هي أيضًا جاءت من قرية صغيرة بعيدة في أقاصي الريف الذي لم يتعود على الصراحة والوضوح، ولم يعرف الحرية ليتقبلها ببساطة.
كان أهل القرية يراقبون خطواتها خطوة خطوة بسيل من الاعتراضات والاتهامات، يتقنعون بقناع الأبوة الحنونة الخائفة عليها وعلى مستقبلها، ويخبئون خلف أقنعتهم أنياب الذئاب التي تنهش.
عندما تقدم زميل لها بالجامعة لخطبتها، لم يشفع ذلك ليتقبل أهل القرية بعض اللقاءات العابرة بالمدينة الكبيرة التي تذهب إليها من أجل دراستها الجامعية، وعندما صادف أن رآها أحد أبناء قريتها بصحبة خطيبها في حديقة اعتادت أن تظلل بأشجارها قصص الحب الوليدة، عاد وكأنه قنص صيدًا عزيزًا، يجب أن يشاركه أبناء القرية نهشه والتهامه، باتوا يرقبون خطواتها، ويعدون عليها أنفاسها، يفتشون بنظراتهم كل يد تمتد لتدق باب بيتها، حتى أمسكوا به يدق باب بيتها، فتناقلوا الخبر من بيت إلى بيت كخطيئة تستحق الرجم عليها، وكانوا يرجمونها كل يوم بنظراتهم التي تُعرِّيها وكلماتهم الجارحة التي تترك آثار مخالبها بجسدها.

الكلمة الصغيرة باتت تنمو كل يوم، تزداد جذورها التصاقًا بالأرض وبرؤوس العامة، وتنبت لها فروع وأغصان من جحيم، ظلت تتسلل وتمتد من أذن إلى أذن كزرع شيطاني حتى وصلت إلى أذن خطيبها، الذي سرعان ما اتهم وحاكم وأدان، دون أن يعرف أنه هو نفسه التهمة والجريمة التي رماها بها الناس.

أحد أقاربها أرسل إلى الأب يحكي له ما تلوكه الألسن في القرية.. حينها كان عليه أن يختار، هل يبقى إلى جوار ابنته في مصر ليحميها من الطيور الجارحة التي تنهش سيرتها، أو يصحبها معه لتعيش غربة لن تقل قسوة عن غربة الزنازين التي بناها حولها أهلها؟

فاختار أن تكون هي معه.

التقى غريبان، أسرهما الحزن الرابض في عينيهما، ووجد كل منهما في الآخر هبة ألقتها السماء عليه لتنتشله من الوحدة والصقيع.

لكنها الآن تكتشف ببساطة أن الأشياء تنفلت من بين يديها.

استيقظت على كابوس ثقيل لا يريد أن ينزاح، راودها وظنت أن بإمكانها الانتصار عليه ثم فاجأها بطعنة قاتلة، لم تصدق أذنيها، ظلت تعركهما بعنف.

كانت لا تزال تمسك ببقايا النشوة، تشعر أنها تستعيد سعادة ضاعت منها بين كراكيب الحياة.

حين انسحب منها بهدوء وجلس عاريًا على حافة السرير، كانت تشعر أنها وديعة ومستسلمة على نحو يائس، تكومت تستجمع بقايا أعضائها وتمسك بنشوتها، تغمض عينيها حتى لا تفارق لحظتها.

لم تشعر به حين نهض من جوارها وذهب ليأخذ حمَّامه الساخن، ثم عاد مرتديًا ملابسه الكاملة، كانت غارقة إلى أقصى درجة في الحب الذي خدرها، وجعلها تظن أنها امتلكته إلى الأبد.

في تلك اللحظة المستحيلة وجدته إلى جوارها، يعبث في خصلات شعرها التي تفرقت ما بين الوسادة وجبينها وغطت عينيها وأخفت ما بهما من نزق.

لم يعطها وقتًا لتفيق من غيبوبتها، بدا كمشهد رديء في فيلم عربي ممل، باغتها قائلا:

- تعرفين يا مروة أن ما بيننا أكثر من أن نصفه بالحب.

- ....

- لا يوجد أغلى من طفلينا لنعيش من أجلهما. ربما أكون غير قادر على تقديم السعادة إليك في طبق من السيلوفان الأحمر. ربما تسببت لك في الكثير من الألم، لكنني لن أستطيع أبدًا أن أخدعك. صدقيني يا مروة لا أتخيل حياتي بدونك أو بدون الطفلين، لا أريدك أن تتعجلي في اتخاذ أي قرار، ولا أريد أن تسببي لي جرحًا جديدًا أعيش به بقية حياتي.. لا وقت أمامي لتندمل جراح جديدة.

- ....

- أنا وسلمى سنتزوج. لا أريد أن أجبرك على اختيار ما، لكن ثقي أنني أريدك دائمًا إلى جواري. من أجل أيامنا الجميلة التي عشناها معًا، من أجل أدهم وعبير، لا تحطمي البيت الذي وضعنا لبناته معًا، لبنة لبنة. كنتِ دائمًا صاحبة الفضل في الحفاظ على هذا البيت.

- ....

- سامحيني.. لكنني لم أستطع أن أخدعك.

مال برأسه ناحيتها، وطبع قبلة على جبينها، وانسحب وسط غلالة من الألم والضباب.

***

(7)
كان في قرارة نفسه يريد أن يسأله إن كان تمنَّى يومًا أن يقتله

- لماذا سكت.

- ....

- أم كنت تفكر في أحد تتمنى لو تقتله فعلا؟!

قال شوقي بعد أن لاحظ شرود صاحبه الذي طال.

أفاق سيف على كلماته، رسم ابتسامة متعبة على شفتيه، وتساءل باستنكار:

- أنا؟!

لم يعرف أصلا ما الدافع وراء حديثهما الفارغ عن القتل الذي بات مفردة من مفردات الحياة اليومية.

يراه في الشارع، وفي العمل، وفي البيت، وعلى شاشات الفضائيات في كل لحظة وكل دقيقة، دون أن يحرك فيه ساكنًا.

ربما أراد أن يقطع الصمت والأسى الذي غلفهما بغلالة رمادية، لكنهما استرسلا طويلا في حديث موجع.

أراد أن يغير مجرى الحديث بالخوض في أمر آخر، لكنه فاجأ نفسه يسأله:

- ألم تفكر أنت يا شوقي أن تقتل أحدًا من قبل؟!

ضحك شوقي في نفسه، إنه أضعف من أن يرى دجاجة تذبح أمام عينيه، لا يعرف من أين أتى بكل ذلك الضعف الذي يختزنه بداخله، لكنه لا ينكر أن القتل شغل رأسه فترة من الزمن على انه شهوة يختزنها الجسد كغيرها من الشهوات، من الممكن أن يخرج ماردها الكامن في أية لحظة.

فكر في كتابة رواية يناقش الفكرة من خلالها، واختار لها عنوان (عاملة النظافة)، وشرع في الكتابة، ثم تراجع خوفًا من أن يقع في أسر الفكرة البوليسية.

- ي...

سقط حرف من بين شفتيه، ولم يكمل كلمته بعد أن وجد صاحبه شاردًا بنظره بعيدًا.

سأله سيف، ولم ينتظر ردًا.

هل كان في قرارة نفسه يريد أن يسأله إن كان تمنى يومًا أن يقتله.

من أجل ماذا؟

أشياء كثيرة لا يستطيع حصرها تصلح مبررًا لقتل سيف.. لا زالت صورة هبه تتأرجح أمام عينيه قبل أن يسقط بروازها من فوق جدار القلب ويتهشم إلى قطع صغيرة جعلت قلبه ينزف بضراوة.

آخر مكان كان يتوقع أن يراها فيه بعد كل تلك السنين بارات وسط البلد. حينها كان في أمسية أدبية بالقاهرة، صحبه الرفاق إلى أحدها لتناول البيرة. كان منتشيًا كطائر أفلت للحظات من قفصه الصغير بفعل الشِعر والبيرة والصقيع، يضحك من الأعماق على الكلمات التي تفلت من الأصحاب بعفوية، تسخر من كل شيء دون حساب.

السخرية طالت كل من جاءت سيرته على لسانهم بمن فيهم الحاضرون أنفسهم، بات كل منهم يعترف بالخطايا الصغيرة التي ارتكبها، أشبه بحالة من التطهر أمام مذبح الاعترافات، منهم من اعترف أنه كان يتمنى أن ينسج قصيدة على بحور الشعر لكنه لا يستطيع أن يزن شطرة واحدة، وآخر اعترف أن دراساته النقدية كلها أكل عيش.. سبوبة، لأنه لو كتب آراءه الحقيقية لن يستعينوا به أبدًا في مؤتمراتهم وندواتهم، نصف من يكتب عنهم لا علاقة لهم بالأدب، لا يريد أن يستعدي أحدًا، ابنه أصبح

يكتب القصة ويريد أن يراه كاتبًا كبيرًا ذائع الصيت، ولن يتحقق له ذلك إن استعدى المؤسسة ومثقفيها.

روائي كبير تباهى بقدرته على التناص مع نصوص عالمية وإعادة صياغة المسرود عنه.

شوقي بدأ يحكي عن صاحبه المسئول الكبير الذي اعتاد على سرقة أحلامه، لكنه لم يجرؤ على أن يبح باسمه. عن الرواية التي أعطاها له لتنشر بالسلسلة التي يشرف على تحريرها وظلت حبيسة درجة لسنوات بحجة تقارير القراءة التي ترفض نشرها بالمؤسسة، ثم يفاجأ بصاحبه ينشر روايته لكن يسبقها اسمه هو.

لا يستطيع أن يقول إنها روايته.. لم يكن لها نفس العنوان أو تعبث في فضائها نفس الشخصيات، لكن الكُتَّاب يعرفون ماذا تعني أن تسرق روح الكتابة.. كانت روح كتابته برواية صاحبه.

كما سبق وسرق البهجة من حياته، وتركه أسيرًا للحزن الذي كان يزول فقط حين يقابلها، ومنذ غيابها بات رفيقًا دائمًا له.

حكى عن صاحبه الآخر الشاعر النزق الذي كان يمارس مع نفسه جلد الذات وتعذيبها بعد أن فقد حبيبته بإرادته وحده، باستسلامه لمقدسات العائلة والخضوع لرغبة الأم، ليعيش أسطورة الضحية، نصف إله مصلوب، والنصف الآخر قاتل مأجور.

قتل قلبه، والآن حان الوقت ليبيع قلمه من أجل الدولار.. جاءه أحدهم بصحبة آخر قال إنه صحفي بجريدة عربية. قال إنه تحدث مع أحد الناشرين ببيروت بخصوص جائزة دولية جديدة للرواية، بإمكان الدار أن تضغط لدخول أعمالها بقائمتها القصيرة، ثم استطرد قائلا: مجرد ترشيح العمل يضمن رواجه بشكل كبير في سوق النشر، خاصة إن كان يتناول الحياة السريَّة للمجتمع السعودي.

حين قص عليه الصحفي جزءًا من سيرته تحمَّس لها، طلب أن يكتبها سريعًا لتطبعها الدار وترشحها للجائزة.
الصحفي قال إن الجائزة لا تهمه.. لكن صدور رواية له يعني الكثير داخل مؤسسته الصحفية.
حكي له عبر جلسات طويلة قصة حياته منذ طفولته، وقال إن صاحبه الشاعر لن يفعل أكثر من أن يعيد صياغتها من جديد، وسيدفع له ما يريده.
الرواية التي لم تصعد للقائمة القصيرة أثارت ضجة كبيرة بعد أن كشفت عن القاع المظلم في المجتمع السعودي، صارت تتلقفها الأيدي بعد أن منعت من دخول البلاد، وتناولتها أقلام كبار النقاد، بينما دواوين صديقي ملقاة على أرفف المكتبات بلا ثمن، واسمه تائه بين كثير من الأسماء التي لا يعرفها أحد، أما الصحفي أو الروائي الدعي فصار أشهر من أن تخطئه عين.
ظل يحكي ويثرثر، بينما يتخلل صوته شيء من المرارة والتهكم، كان يريد أن يستطرد أكثر عن أنور شفيع، وسيف ناصر، لكن فجأة أطلت هبه من المستحيل وظهرت من جديد.
تلاقت عيناه بعينيها فشعر بيد ثقيلة تسحب روحه، وتسقط عن وجهه الابتسامة العابرة.. لابد أنها يد القدر الذي رفض أن يمنحه السعادات الصغيرة التي يمنحها للشبان والفتيات تحت رفيف الأشجار.
فارقتها ابتسامة توزعت بين مكياجها وتجاعيد وجه لم تفلح في إخفائها، ابتعدت بجسدها عن مرافقها الشاب، تناولت علبة التبغ، وأخرجت سيجارة وأشعلتها.
لم يدر كيف وجد نفسه معها، كيف انفلتا من الرفقاء وخرجا من باب البار الضيق إلى شوارع وسط البلد التي غسلتها زخَّات المطر؟

تعلقت بساعده ودفنت جراحها بين أحشائه، قالت دون أن تعني كلماتها:
- لم تتغير كثيرًا يا شوقي.
ابتسم ابتسامة مُرَّة، ولم يتكلم.
ظلا يصطحبان الصمت ويسيران بين سحابات الضباب التي غطت سماء القاهرة وينفثان دخان أنفاسهما الملتهبة حتى و صلا إلى حافة الكورنيش.
استندا إلى السياج الحديدي، يرقبان انعكاس الضوء على صفحة النهر.
ظل يقاوم رغبة عارمة في الانفجار بوجهها، يمسك الحروف حتى لا تندفع كالإبر. كانت هبه اختياره الوحيد في كفتي ميزان الجبر والاختيار، بينما الكفة الأخرى مثقلة بحياة كلها قضاها جبرًا لا اختيارًا.
لا سبيل إلى منع الوخزات من الوصول إلى القلب، بالكاد كان يقضم شفتيه ويكبل شيطانه وهو يقول:
- أين اختفيتِ؟!.. أعددت كل شيء.. غامرت بكل شيء.. صارحت زوجتي وقلت لها إنني وجدت الحب ولا أستطيع أن أفقده.
وفي النهاية لم أجدك.
- أنت مجنون يا شوقي.. مجنون؟! كنت تريد أن تهدم بيتك وحياتك من أجل نزوة.
- ......
- ......
- لم يفت الوقت بعد، سأنسى كل شيء، ونبدأ من جديد.
ضحكت ضحكة مغوية جعلت النهر يتماوج، ورسمت الشحوب والأسى على وجهه.
- أنت مجنون يا شوقي.. مجنون ولا تزال كما أنت. هبة التي عرفتها ماتت منذ سنوات، هبه التي أمامك الآن شيء عابر من ذكرى بعيدة، عندما ينقشع الضباب لن تجدها.

مالت برأسها على خده وقبلته بحنو، ثم ضمته طويلا، وانسحبت بين غلالات الضباب التي تكاثفت حتى حجبت كل شيء.
سحب نفسًا عميقًا، وقال في نفسه: (ياه يا سيف.. ماذا فعل شوقي بكم ليستحق كل ذلك العقاب؟.. القتل وحده لا يكفي).

***

ضحك سيف في نفسه، وهو يردد كلمات أنور شفيع له:
- لم أجد أمامي غيرك.. أنت الوحيد الذي يستطيع إقناع شوقي بالعدول عن قراره.
أية رومانسية يعيش بها أصدقاؤه القدامى؟!
كان يعرف كل شيء عن حبيبة شوقي، حتى من قبل أن تتصل به زوجة شوقي وتطلب مساعدته، عيونه في قصر الثقافة أخبروه عن البنت التي أصبحت كل شيء في حياته، وهجر الندوة من أجلها.
أرسل إليها يطلب مقابلتها بمكتبه بالقاهرة ونبه عليها ألا تخبر أحدًا، وبالأخص شوقي.
ترددت هبة كثيرًا، هل تخبر شوقي عن طلب صاحبه الذي سمعت عنه من كل رواد القصر وتعرف أنه صديقه المقرب، أم لا؟
لكنها قدرت أنه ربما أرادها في أمر يخص شوقي، وقررت في النهاية أن تذهب إليه بمفردها.
شدت رحالها إلى القاهرة وسألت عن عنوان المؤسسة حتى وصلت إلى مكتبه.. فاجأها حين قال:
- أنتِ هبة الشناوي؟
رآها تمامًا كما وصفوها له.
مسحة حسد نبتت في قلبه حين وقعت عيناه عليها، دائمًا ما يعرف شوقي أن يقطف نكهة الأشياء في أولها.

كان أول من عرف طريق النشر في الجرائد من بين أصحابه، وأول من التحق بعمل حكومي، وأول من تزوج، وأول من أسره جمال البنت التي تشبه شجن الربابة.

طلب لها ليمونًا باردًا واستطرد في حديثه معها عن الفيوم والثقافة والإبداع، قال كلامًا كثيرًا لم تعد تتذكر منه شيئًا، إلا رجفة صوته حين جاءت سيرة شوقي، خفض من نبرة صوته كأنه يخشى أن يسمعه وهو جالس هناك بصمت وخشوع يرقب هدير الساقية، قال إن صاحبه يعيش كشخصية روائية على ورق، لا يريد أن يعترف بحقائق حياته التي يعيشها.

زوجته هي التي تقوم بكل شيء من أجله، أهدرت ميراثها من أجل الإنفاق عليه وعلى صغيره، بينما هو يكتفي بالفرجة على الحياة من خلف زجاج شفاف.

من قبلها كان أبوه ينفق عليه، وهو الذي سعى إلى توظيفه بمجلس المدينة مقابل جنيهات زهيدة لا تكفي لشيء، إن تركته زوجته سيكون بمثابة الحكم بالإعدام عليه، لن يجد ما يقتات به قوت يومه.

شوقي لن يستطيع أن يقدم لكِ شيئًا، أنت جميلة، والقاهرة تفتح أبوابها للجميلات، ستنشر قصائدك على صفحات الجرائد، وتطبعين دواوينك في أكبر المؤسسات الثقافية، وتصبحين نجمة ندوات وأمسيات القاهرة.

شوقي ماذا يستطيع أن يقدم لك؟.. الأولى به أن يساعد نفسه في نشر أعماله التي تكدس بها درج مكتبه.

أنتِ جميلة وصغيرة وستقابلين الحب وقتما تريدين بإشارة منك، أما شوقي فيبحث عن سراب، سيدمر بيته وحياته من أجل نزوة، سيكتشف مع أول ضائقة تمر بكما كم أخطأ حين استسلم لاندفاع مشاعره الهوجاء وترك بيته وزوجته.

لم تعرف السر وراء الدموع التي نزفت من عينيها، لا تعرف حقيقة مشاعرها تجاه شوقي، فقط اعتادت أن تقابله كل يوم وتقف مبهورة أمام كلماته التي ينسجها ببراعة، تقضي الليالي تحلم بجمهور كبير في انتظارها، وشوقي يسير بها ويدفع المتزاحمين عنها.

معه عرفت ارتعاش أول لمسه، ودفء القبلة الأولى، ومتعة القفز في الشوارع كطيور صغيرة تجرب الطيران، شعرت معه أنها فينوس، وهو أحد عبادها المفتونين بسر الآلهة.

لم تعرف رجلا آخر في حياتها بخلافه، نشأت وحيدة في عالم بلا رجال، بلا أب، أو أخ، أو عم، أو خال. رغم ذلك عاشت أمها تحذرها من الاقتراب من عوالم الرجال، والسحر الذي تحمله كلماتهم وتقود الجميلات إلى هاوية لا قرار لها، لكنها مع شوقي نسيت كل تحذيرات أمها، وانساقت خلفه مسحورة بقوة خفية كبلت حواسها وسلبت إرادتها.

أليس ذلك هو ما يسمونه الحب؟!

لم تعرف بما تجيبه حين فاتحها في أمر زواجهما، كانت تعرف أنها تحبه، لكنها لم تسأل يومًا عن نهاية هذا الحب؟

الحب عندها ابتداء وانتهاء.

نظرت في عينيه تبحث عن الإجابة بين سطورهما، ثم اكتفت بالصمت الموشح بالخجل الأنثوي الجميل.

لم تخطر برأسها كل الأسئلة التي رددها سيف أمامها الآن، لم تتساءل عن زوجته وابنه، عن الشعر والكتابة وقصر الثقافة. كل ما دار برأسها صورة البنات وهن يضعن التاج الأبيض فوق رؤوسهن.

أفاقت على أنامل سيف ناصر تمسح الدموع التي تساقطت على خديها، وصوته وهو يسألها عن قصيدة لها ينشرها بمجلة المؤسسة.

رعشة خفيفة هزت جسدها نسيت معها كل شيء ورأت أنوثتها في قصيدة تتراقص حروفها على صفحات الجرائد وبين أكف المعجبين، ظلت تعبث بحقيبة يدها بحثًا عن قصيدة، إن نشرت ستكون شهادة ميلادها الإبداعية.

وربما كانت سطر النهاية في علاقتها مع شوقي.

في الطريق ظلت الأفكار تتعارك في رأسها، شعرت أنها تسير في صحراء مترامية دون مرشد أو دليل يساعدها على الوصول إلى طريقها، تحب شوقي لكنها لم تفكر بالزواج به، ولا تريد أن تسبب له ألمًا، لكنها كانت تعرف أنها تحب نفسها أكثر من أي شيء آخر.

تساءلت في نفسها عما يستطيع أن يقدمه لها سيف ناصر، نشر قصيدة ليس بالشيء الكبير، لكنه بداية لترتقي سلم أحلامها.

حين قابلت شوقي بعدها وطلب أن يزور والدتها ليطلب يدها، وجدت نفسها تردد دون إرادة كلمات عن حبهما الذي لا شك فيه، عن الزهور الجميلة التي تزبل مع الوقت، عن نيران البركان حين تفور، ثم تخبو وتتلاشى إلى رماد.

ذكرت كلاما كثيرًا- عن زوجته وصغيره، وعن تضحيات المحبين من أجل سعادة أحبتهم- لم يفهم شوقي منه شيئًا.

اتصلت بعدها بسيف ناصر، حكت له ما دار بينهما، وكيف لم يعبأ بكلامها كأنه لم يسمع حرفًا واحدًا، وكيف صحبها إلى والدتها وطلب يدها.

سيف سألها إن كان بإمكانها أن تترك الفيوم لبعض الوقت؟

- وأين أذهب؟

- تذهبين إلى النور حيث تعيش النجوم الزاهية.

- .....؟

- سأدبر لكِ مكانًا.

قال سيف ناصر، واسترسل معها عن كاتبات أصبحن نجومًا وهن لا علاقة لهن بالأدب لمجرد تواجدهن بالعاصمة وارتيادهن الندوات والأمسيات.
وفي نهاية المكالمة أخبرها أن قصيدتها ستجدها في العدد الذي سيصدر من مجلة المؤسسة.
قال إنه أصلح بعض عيوب الوزن، وعدَّل بعض سطورها لتوائم سياسة النشر بالمجلة.
حلقت سعيدة وقالت إنها ستكون عنده في أقرب وقت.

***

(8)

لن يعرف ما تفعله سيجارة لامرأة وحيدة غارقة في شجن غامر.. كلتاهما تنتحران بالنار أو بالحب

مرقت بهما السيارة وسط الزحام. وجه العاصمة بملامحه القاسية لم يحفل به كثيرًا، تلهث الأشياء وتجري من أمامه دون أن يستطيع أن يمسك بالتفاصيل، دون أن تحتضنه بكفيها الخشنتين وتضمه إلى صدرها. كان شاردًا في شوارع قاهرته التي لم تشبه مدينته التي رسمها على رمال شاطئ الخيال، القاهرة التي تخرج من صفحات الذاكرة دافئة وحنونة مثل أم بأقاصي الصعيد تنتظر أولادها، تغسل النيل كل يوم وتمنيه بعودة الغائبين.

ها هي مثل عجوز تتصابى وتغرق في مساحيق التجميل الرخيصة.

كانت في عالم آخر من الحيرة والتردد، لا شيء في الفؤاد سوى خرائب ووطاويط، أدارت كاسيت السيارة على السيمفونية الثالثة لبيتهوفن، أخرجت سيجارة من علبة سجائرها وأشعلتها في محاولة للهروب من نظرات عينيه.

- منذ متى وأنت تدخنين؟!

سألها وهو يحاول إبعاد خواطر وذكريات كئيبة تدق رأسه.

- يعني.

كانت تغالب خجلا وندوبًا عميقة بالنفس وألوانًا رمادية الطيف، وألمًا يتعاظم كلما حاولت دس روحها في جراب الحزن العميق.

لن يعرف ما تفعله سيجارة لامرأة وحيدة غارقة في شجن غامر.. كلتاهما تنتحران بالنار أو بالحب.

بينما كان يغزوه اطمئنان صغير دافئ بعد أن أحضر كل ما اعتقد أنه السبيل إلى الرجوع بعجلة الزمن إلى الوراء، وأسر الأحلام الضائعة هناك بشقة حدائق الأهرام التي اشتراها لتشهد قنص الفرحة بعد عمر من الاستحالات. تلك المشغولات الذهبية التي اشتراها قطعة قطعة عبر سنين، لتصلح شبكة لعروس من عوالم ألف ليلة وليلة، حاربتها ساحرات الليالي الشريرات لتبعدنها عن حبيبها، لكنها قاومتهن وانتصرت عليهن في نهاية الرواية، لتظفر بحبيبها الذي قطع بلاد الواق واق، ليحضر شبكتها ويفك تعويذتها السحرية الأخيرة.

الحقائب التي احتشدت بالملابس والعطور والهدايا الثمينة.

أخبر زوجته بكل شيء وترك لها حرية الاختيار ما بين أن تبقى معه، أو بين أن تتركه لسلمى وحدها.

أنهى كل متعلقاته في العمل، وقرر الاستقالة.. سيتفرغ للحب والشعر.

رتب لكل شيء إلا لكلماتها التي بدت مثل نقيق دجاجة مذبوحة:

- لا أستطيع يا أنور.. لا أستطيع.

ضغطت بكل قوتها على دواسة الفرامل فأحدثت دويًا هائلا بإسفلت الطريق، وسط دوي صفارات السيارات خلفها وسبابهم.

فتحت باب السيارة غير عابئة بكل الفوضى والضجيج اللذين أحدثتهما، وعبرت الطريق إلى الرصيف.

حاول اللحاق بها لكن الناس منعوه حتى يزيح السيارة بعيدًا عن طريقهم، كان ينقنق بكلمات دون أن يفهمه أحد.

أحدهم جلس على مقعد القيادة ونحاها جانبًا، وأنهى عراكا لا يرى فيه خصم خصمه الآخر ولا يسمعه.

بينما هرع لاهثا خلفها صائحا:

- كنتِ هتموتينا.

- ....

- إيه اللي حصل؟

- ....

- أرجوكِ اتكلمي.

لم تستجب لرغبته الجامحة في الحصول على إجابات، توغل بصمتها في مضاعفة العقاب، الصمت الذي ينهش بأظافره الجروح القديمة فتتدفق شلالات من الألم.

كلمة واحدة قد تسرِّي عن روح وحيدة وتعيدها إلى الحياة، لكنها أضن من أن تبوح بها. ستكتفي بصمتها المليء بضجيج الكلمات.

كانت تعرف أن البعض لا يجيد في الحياة إلا إيذاء النفس والعيش على أطلال التعاسات، أنور لعب معها نفس الدور، تركها ترسم حدائق الحلم والوهم وهرب، كان بارعًا منذ طفولتهما في تقطيع أصابعهما بالموس، ولعق دمائهما بحجة أن اختلاط دمهما لن يجعل شيئًا يفرقهما في الحياة.

"كم كنت بارعًا في منحي الألم، دماؤنا التي أريقت تحت ظلال أشجارنا الخريفية وتناثرت معها في الهباء".

كانت تهمس لنفسها غير آبهة إن كان يسمعها أم لا، قبل أن تتوقف لتقاوم إغماءة تحاول مداهمتها عنوة.

تحصنت ببؤسها، ورشقته بنظراتها اليائسة:

- ما الذي نحاول أن نفعله؟ نمارس ركضًا مستحيلا إلى الماضي للحاق بسلمى وأنور اللذين تركناهما هناك، حيث كنا نرسم خطًا للأحلام ونتبع ظله وانعكاساته التي تداخلت مع خطوط أخرى رسمناها أو رُسمت لنا، فلم نعد نعرف أي الخطوط تقودنا في زحام الظلال والانعكاسات.

- ....

- لا أستطيع يا أنور.. لا أستطيييع.. أنا عدت إلى زوجي.

يصيبها نحيب شديد، فتتكلم بحشرجة مزكومة:

- عد إلى زوجتك يا أنور.. وإلى عملك، لا تترك نفسك للذكريات تمزقك، كما مزقتني.

يتعثر في الكلام، انكمشت أحلامه كما ينكمش الزمن.

يرى الريح تعصف من بعيد وتجرف ما بناه من بيوت الرمل الواهية، لحظات أمضاها مثقلة بالحيرة والأسئلة الملغزة والوجع الذي يفقدك معنى الأسئلة والإجابات، فلا تصبح لهما جدوى.

يتظاهر كرجل شرقي بالثبات والتماسك، ويمارس انتظاره الطويل في مواجهة إدراكه لمعنى الغياب والفراغ الكبير الذي يلاحقه.

***

(9)

لم يكن يحب كامو، لا يحب الكتابة تأطيرًا لفلسفة ما، العالم أعقد من أن تفسره النظريات

حين عاد شوقي إلى شقته كان الصمت يلف الناحية كلها، لا شيء إلا أنفاس مثقلة بالوهن، وأنَّات خافتة لكائنات لا تُرى.

خلع هندامه وتمدد على أريكة خشبية بصالة الشقة ملتمسًا بعض الهواء من نافذة نصف مفتوحة، أزاح كتابًا بعيدًا عن الأريكة وألقى به إلى الأرض.

تلك الرواية الملعونة التي وجدها مدفونة بين الكتب، جاهد ذاكرته إن كان قرأها من قبل أم لا؟

لم تكن الإجابة تعني شيئًا، العنوان أخذه لوهلة، (الموت السعيد).. تساءل والحيرة تتملكه: هل هناك موت سعيد؟

لم يكن يحب كامو، لا يحب الكتابة تأطيرًا لفلسفة ما، العالم أعقد من أن تفسره النظريات، لا يفسر الحياة إلا الحياة.

تساقط التفاحات من الشجرة قد لا يعني أكثر من الرغبة في التحرر من الأسر يا سيد نيوتن.

شعر أنه أشبه بثمرة توشك على العطب.

لِمَ أصبحت رفقة سيف ثقيلة إلى هذا الحد، رفقة بطعم الاستسلام لمرارة العالم، بات سيف شخصًا آخر لا يكاد يعرفه، كان يتحدث بسعادة من يرتشف دم ضحية عاجزة عن المقاومة، وهو يسأله عن رأيه في مقالته الأخيرة عن رواية حسام حامد.

- أي مقال؟

تساءل شوقي باستهانة، وصمت بعدها ليدع سيف يتحدث عن براعته في قلب الحقائق.

(كل نص أدبي ينفتح على عوالم مختلفة من الفنون والنصوص التي سبقته، ومن الطبيعي أن تجد وراءه عشرات من النصوص الأدبية والفنية التي يتفاعل معها وتتفاعل معه، وما عليك إلا أن تتعب نفسك قليلا وتبحث عن النص أو العمل الفني الآخر الشبيه، وتطرح السؤال البريء عن التشابه، وهل هو نتيجة تناص أم محاكاة تصل لدرجة السطو الأدبي الصريح؟!.. ما عليك إلا أن تلقي بالتهمة وتدع الآخرين يكملون المهمة، مجرد أسئلة عامة عن مفهوم التأثير والتأثر والسرقة، التشابه مع فيلم أجنبي تفتح الشهية للقيل والقال، وتوقظ شهوة التشفي عند كثيرين في داخل كل منهم رغبة في كسر عظام الآخر. سيستجيبون سريعًا لك ويلقفون اتهامك، يؤكدونه ويروجون له.

لا أحد في الوسط الثقافي يعتقد أنه أخذ التقدير المناسب، كل واحد منهم يرى في نفسه كافكا جديدًا، ستظهر يومًا أعماله وتغير من مفاهيم الكتابة، لذا بمجرد أن تذكر اسم أحدهم حتى يتبارى الحاضرون في سلخه وشوائه دون رحمة للتأكيد على أنهم الأفضل. أو لمجرد التشفي المرضي الذي يحتار في تبريره أعظم علماء النفس.

والمبررات جاهزة وحاضرة دائمًا، حتى وإن كان ما يكتبونه مجرد مسوخ لا تعني شيئًا، لكنهم لا يجرءون على التصريح بآرائهم الحقيقية في المنتديات العامة دون مؤازرة من أحد.

يحتاجون فقط لمن يطلق الطلقة الأولى، بعدها تندفع فوهات ألسنتهم ولا تتوقف عن إطلاق الرصاصات والاتهامات).

توقف لحظة استنشق فيها نفسًا عميقًا مليئًا بالنشوى، ثم استطرد قائلا:

- عشرات النقاد أيدوا رأيي، وعادوا إلى أعماله لإعادة قراءتها من جديد.

- لكن مالك أنت وحسام حامد.. حسام ترك المؤسسة منذ زمن بعيد؟!
- ولو.. هل نسيت ما فعله معي في بداية عملي بالمؤسسة، كان بإمكانه أن يقضي علي، وعلى مستقبلي.
- وإن لعب أحدهم معك نفس اللعبة؟!
قالها، وهو يتمنى أن يفضحه أحدهم ويعري زيفه.
هل نسي روايته الأولى التي دفعت باسمه بين الكبار، ألم يفعل بمخطوط روايته التي سلمها لنشرها بالمؤسسة كما فعل حسام حامد بالفيلم الأجنبي؟!
كلماته السابقة أكدت شكوكه التي لم تغادر رأسه منذ أصدر سيف روايته الأولى، وحبس مخطوط روايته في زنزانة مكتبه.
لكن سيف رد بحزم:
- إذا غامر أحدهم ولعب معي تلك اللعبة القذرة، فقد قضى على مستقبله ومحا اسمه من الوجود. هل نسيت من هو سيف ناصر، وماذا يعني اسمه في الوسط الثقافي؟!
لم أصبحت رفقة العالم كواجب ثقيل لابد من أدائه على نحو ما.
الدكتور حلمي قال إنه يراه ينغلق على نفسه يومًا بعد يوم.
نصف سكان العالم يعانون من الاكتئاب، يبنون أسوارًا من العزلة حول أنفسهم، ويتركونها تتطاول حتى تمنع عنهم الهواء، وتضع حد مقصلتها على رقابهم. الاكتئاب هو عدو البشر الأول.
شعر بكآبة صامتة ترقد على قلبه، قال:
- أرغب أن أتزوج أو أنتحر أو أقتل أحدًا، بالاختصار أن أقوم بأي فعل يائس.
شعر أنه يردد نفس كلمات مرسو بطل ألبير كامو في "الموت السعيد"، حاول أن يتذكر كلماته تحديدًا، ربما كان يقول:

- أرغب في أن أتزوج أو أنتحر أو أشترك بمجلة ألوستراسيون.. وبالاختصار حركة يائسة.
كيف يخرج من هذه التجارب سليمًا، دون أن يحمل بعض المشاعر المرضية والحزينة وبعض مشاعر الكره والحقد أو الرغبة في الانتقام أو الضغينة الحيوانية الشرسة.
نظر إلى الدكتور حلمي ولم يعرف إن كان قال شيئًا أم لا، لكنه أشفق على نفسه أن يعيش كشخصية روائية على ورق، ينتظر الموت وهو يزحف نحوه ببطء ليلتهمه بتلذذ.
جاهد حتى ارتسمت على ملامحه ابتسامة ثقيلة، نهض من على كرسيه بمدخل صيدلية المحبة، وأشار له بيده، ومضى خطوات إلى الشارع قبل أن يصل صوته إلى حلمي:
- ألقاك غدًا.
غالبًا ما تقوده قدماه في نهاية اليوم أو بدايته إلى هناك، لا يعرف الدافع وراء تلك العادة.
سنوات مرت لا يجيد إحصاءها منذ عرفت قدماه الطريق إلى هناك أول مرة، تعبت شمس وسقطت أمامه على الأرض، الوقت كان متأخرًا، أحضر طبيبًا كان يتثاءب ويمسح عن عينيه بقايا النوم، لف جهاز الضغط حول ذراعها وأخرج روشتة خط بها بعض الأحرف، وقال:
- لابد أن تأخذ هذه الحقنة فورًا.
واستطرد قائلا:
- غدًا تقوم بعمل مجموعة فحوصات وأشعة.
ثم تركه وانصرف.
أحمد كان بسكنه الجامعي.

كان وحيدًا ولم يكن يعرف كيف يتصرف، شمس اعتادت أن ترتب كل شيء بنفسها، باتت تعرف الصغيرة والكبيرة عن حياته وحياة أحمد، ترتب وتخطط وتنفذ وهما يعيشان كقطعتي شطرنج تحركهما كما تشاء في مواجهة رقعة كبيرة بحجم الحياة تتسع لمئات وآلاف المهاجمين والأعداء. وكثيرًا ما نجحت في عزلهما هناك بعيدًا عن المنازلات والعراك.

تعرف ما يحتاجه قبل أن يطلبه وتقوم به برضاء كبير.. لكنها الآن سقطت ولم يعد بإمكانها أن تحرك قطع الشطرنج الصغيرة العاجزة عن اتخاذ قرار في حياتها.

خرج يتخبط في الشوارع بحثًا عن صيدلية تفتح أبوابها. كل الصيدليات أغلقت أبوابها في وجهه، كما اعتادت الحياة أن تفعل معه.. ظل يجوب الشوارع والحواري حائرًا لا يعرف ماذا يفعل؟

يسأل كل من ألقى بهم الليل في طريقه حتى دله أحدهم على صيدلية جديدة يقولون إنها تعمل لمدة أربعٍ وعشرين ساعة.

هرول بخطواته ناحيتها، الطبيب الواقف بها قرأ لهفته، تناول الروشتة بنظرة متعاطفة، وقال:

- إن شاء الله خيرًا.

أحضر الأمبول والحقنة وأعطاهما له، لكنه تجمد في مكانه ولم يغادر الصيدلية، نظر إلى الأرض، وقال:

- لا أعرف أحدًا يعطيها الحقنة في هذا الوقت المتأخر.

ابتسم الصيدلي وسأله:

- البيت بعيد عن هنا؟

صمت، بينما عيناه المسكونتان بالقلق تترجاه أن يرق لهما.

- ....

- ولا يهمك.

أغلق الباب الزجاجي لصيدليته، وأدار محرك سيارته، وذهب معه.
من حينها قدماه لا تعرف الطريق إلى صيدلية أخرى. حتى بعد أن غابت شمسه عن الدنيا، ظل متعلقًا بذلك الطريق، ربما لأنه أخر ما تبقى له من ذكرياتها.
لكن حلمي استوقفه قائلا:
- انتظر.. هتروح فين؟
- هروح أنام.
- لأ.. تعال معي نحضر الاجتماع ببيت الحاج فهمي.
- أي اجتماع؟
تساءل شوقي باستغراب.
حلمي ابتسم ابتسامة كبيرة وهو يطمئن على إغلاق خزانة النقود بأرقامها السرية، وقال:
- لا أعرف كيف تكون مثقفًا وتعيش في عزلة عن العالم، المثقف لابد أن يكون له موقف في كل ما يحدث حوله، البلد مقدمة على انتخابات، وأنت ولا هنا؟!
بلا مبالاة، قال:
- انتخابات.. هل تسمي ما يحدث عندنا بانتخابات؟!
أغلق حلمي أبواب صيدليته، وتأكد من إغلاق الأقفال جيدًا بعد أن رسم بإشارات خفيفة علامة الصليب عليها، وقال بحماسة شاب بعيد كان يسكنه:
- علشان كدا لازم نتحرك ونغير اللي بيحصل.
لم يشأ شوقي أن يجادل طويلا، استسلم لرغبة حلمي وركب معه السيارة التي حملتهما إلى بيت الحاج فهمي.

لم يكن يتوقع كل ذلك الحشد الذي ازدادت حركته كثافة في حديقة البيت.

لمح الشيخ إخلاص يقف في دائرة مع عدد من أفراد جماعته وأنصاره على رأسهم الطبيب الكبير الذي كان مرشحًا عن الجماعة في الانتخابات السابقة، الأنبا مرقس وقيادات الكنيسة الأرثوذكسية والإنجيلية في دائرة ثانية اتسعت بانضمام مشايخ من الأوقاف تبادلوا معهم العناق والتحايا، دوائر أخرى ضمت كبار العائلات والتجار بالبلدة، يقفون مع أمناء أحزاب المعارضة وبعض القيادات التنفيذية بالحكم المحلي من أعضاء الحزب الوطني.

حتى سيف ناصر ترك منصبه الكبير بالقاهرة وجاء ليحضر الاجتماع، وجده جالسًا هناك ضمن دائرة من رجال البلدة أصحاب النفوذ التفّوا حول الحاج فهمي.

الغائب الوحيد الذي لم يلحظ وجوده كان حاتم فهمي.

شعر للحظات بأن شيئًا يدفعه للتخلص من يد الدكتور حلمي التي تجره جرًا ويفر خارجًا، لكن الحاج فهمي باغته بنظرته التي اقتنصته من بين الحضور، نادى عليه وعلى صاحبه، رحب بهما، وأجلسهما على مقربة منه. عاتب شوقي على عدم زيارته له منذ زمن، نسي العشرة والحديقة التي كانت مرتعًا لأيام الصبا وشقاوتها، ولم يعد يسأل عن عمه الحاج فهمي. قال وابتسامة مريرة ترتسم على وجهه:

- يبدو أن حاتم طبع عليكم كلكم.

ثم عاد وسأله إن كان ما زال على اتصال به.

لم يعرف شوقي بما يجيبه. سنوات طويلة انقطعت أخباره عنه، زاره حاتم ورجفة شديدة تجتاح جسده كله، وجملة واحدة تتردد على لسانه: (هل تصدق.. هل تصدق يا شوقي أنني أقتل أحدًا؟!).

احتضنه وسأله إن كانت هناك مشكلة ما؟!

غطى عينيه براحتي يديه، وشرع يحكي ما حدث معه، كان بحاجة إلى أن يصغي إليه أحد.. أنور سافر للعمل بالسعودية، سيف ناصر بعد التحاقه بالعمل بالقاهرة أصبح لا هم له إلا صناعة المعارك والانتصار فيها، لا أظنه قادرًا على الاستماع إلا لصدى صوته وحده.. انحنى عليه قائلا:

- لم أجد غيرك يا شوقي.

شمس وضعت أمامهما كوبين من الشاي، سألت عن أخبار شاهندة، وانصرفت دون أن تنتظر إجابة بعد أن رأت الشحوب يغطي جبينه، والصمت يلف شوقي بخيوطه العنكبوتية. تأكدت حين زاغت عينا زوجها من عينيها أن أمرًا جللا ينتظر صاحبه.

حين غادرهما حاتم، سألت شوقي عما حدث لصاحبه، قال:

- يبدو أنه في مشكلة كبيرة.

حكى لها عن اتهام صاحبه في قضية قتل وتعذيب مسجون، قال وهو يتابع ملامحها التي تشي بجمال شائع، إنه يشعر أنه شخص آخر غير الذي يعرفه، طوال عمره كان يعتقد أن حاتم أشبه بكائن شمعي لا ينفعل بما يحدث حوله، لأول مرة يراه يمثل ذلك الضعف.

جلست أمامه على كرسي، مالت ناحيته تستنهض مروءة دفينة في قاع النفس، وسألته ماذا هو فاعل؟

صمت لحظات أحجم فيها عن الإجابة، ثم قال مُندهشًا:

- أنا؟!.. ثم أضاف متسائلا:

- وماذا أملك أن أقدم له؟

وفكر أنها ربما تظنه كائنًا قادمًا من كوكب الأماني المستحيلة بقدرته أن يحل المشاكل بإشارة من يديه- هو العاجز عن تدبير أبسط أمور حياته- فهز رأسه بابتسامة ساخرة.

نهضت واقفة، واتجهت إلى خزانة صغيرة في حائط حجرتهما، فتحتها وأخرجت بعض المشغولات الذهبية وأعطتها له، قالت إن صاحبه سيحتاج إلى محامين كبار يدافعون عنه وإلى فلوس كثيرة يدفعها لهم، كما يحتاج إلى أصحابه وناسه إلى جواره في محنته، وألحت عليه أن يذهب إلى الحاج فهمي ليقف مع ابنه في محنته.

كانت تعرف القطيعة التي خلفها زواج حاتم بشاهندة، الحاج فهمي سعى إلى مصاهرة حمادة بك عضو مجلس الشعب في بلدته، وخطبة ابنته الوحيدة لابنه، كان يري فيها زيجة مثالية تختصر خطوات طويلة في سلم الصعود إلى السلطة والنفوذ، ورأى فيها حاتم اغتيالا لمشاعر أعادته إلى الحياة بعد أن فقد طريقه للتواصل معها، نجحت شاهندة أن تزرع زهرة في قلبه منذ أول نظرة وقعت عيناه عليها في حفل زواج أحد زملائه بالقسم، لتنقذه من التصحر الذي أصاب حياته.

مع الأيام نبتت حدائق يسمع حفيف أشجارها وغناء عصافيرها في قلبه، كانت شاهندة الوحيدة التي استطاعت أن تعيد القدرة على الحلم إليه، أن يرسم بفرشاته العالم الذي يريده ويتمناه، فلِمَ يحاول الحاج فهمي أن يغتال أحلامه حلمًا بعد آخر؟!

في هذه المرة لم يستسلم لأبيه، انساق خلف مشاعره وحدها، وغناء الكروان الذي يشدو في قلبه.

لم تفلح كل محاولات الأهل والأصدقاء في إقناع الحاج فهمي بمباركة الزواج أو حضوره. من بعدها صارت قطيعة بينهما.

شوقي صحب الحاج فهمي وذهبا إلى أهل المجني عليه في محاولة لإقناعهم ببراءة حاتم، والعدول عن أقوالهم والتنازل عن اتهامهم له، ورغم اقتناعهم أن ثأرهم عند عمر زاهر وليس عند ابن الحاج فهمي، إلا أنهم لم يستجيبوا لرجاءات شوقي، واستعداد الحاج فهمي لدفع الدية

التي يريدونها، حتى لو اضطره الأمر إلى بيع البيت الذي بقي من إرث العائلة وتاريخها.

تلك الأيام التي رأى فيها حاتمًا آخر لا يعرفه.

لمس خلف الصلف الظاهر ضعفًا وانكسارًا يشبه الانكسار الذي يسكنه، الإحساس أنك مسجون داخل نفسك، أشد قسوة من كل الزنازين التي يصنعها حولك الآخرون، كان يشعر أن حاتمًا لا ينتظر المحاكمة لإصدار حكم ببراءته أو إدانته، فقد عقد المحاكمة لنفسه، وأدانها، وأوقع بها أقسى أنواع العقاب منذ سمح لنفسه بالتفريط في حلمه من أجل حلم الأب، دون أن يسمح لنفسه بتقديم الدفاع أو الأعذار.

أي عذر يسمح للإنسان أن تسلب حريته بإرادته، سواء أكان السلب لصالح المجتمع أو الأب أو العائلة، أم كان لصالح السلطة.

سلطة القبيلة التي تسكننا، أم سلطة الدولة الطاغية.

هو نفس الشعور القاتل بالاستلاب الذي يسكن شوقي أمام كل شيء حوله، أمام الزوجة والابن والحبيبة والأصدقاء والمجتمع، الشعور أنك تخرج من بركة آسنة إلى بركة آسنة، والذي تسرب إليه مع الزمن، ومع الهزائم الصغيرة التي يورثها لك المجتمع، وجعل من الحياة نشيجًا أشبه بموسيقى شوبرت المنتحبة التي تُسيل الدموع الفاترة.

مرت محنة حاتم، وعاد شوقي لوحدته واستلابه.. انقطعت أخبار حاتم، ولم يبق منها إلا نثيرات ينقلها له سيف في لقاءاتهم المتباعدة.

سيف خلصه من القوّة الخفية التي ألجمته وأخرسته عن الكلام حين تحدث عن مشاغل الحياة والمسئوليات الكبيرة التي يتحملها حاتم بحكم عمله.

- لا يمتلك كل الناس رفاهية التحكم في حياتهم بحرية، حاتم أصبح أسير عمله.

الحاج فهمي ضحك قائلا:

- طبعًا.. لن يدافع عنه أحد غيرك. فأنت أيضًا لم نرك منذ سنوات، أصبحتما من أهل القاهرة ويبدو أنكما كبرتما علينا.

سيف حاول كسب الحاج فهمي إلى صفه حين ربت على ظهره قائلا:

- وهل يكبر الأبناء على آبائهم يا حاج؟

لكنه أحس بصفعة باردة على وجهه حين قال الحاج فهمي محتدًا:

- يكبرون ويصبحون مثل النبت الشيطاني الذي لا أصل له ولا فصل.

شوقي شده الجمع الكبير الذي كان معظمه من الساسة وكبراء البلدة ووجهائها، كلما وقعت عيناه على عيني أحدهم بادله ابتسامة باردة، فسأل نفسه عن سبب وجوده هنا بين من يجيدون الرطانة والأكاذيب التي يبيعونها للناس من أجل أصواتهم؟.. لكنه لم يجد إجابة مناسبة، أفاق على دعوة الحاج فهمي للحضور للالتفات نحوه وترحيبه بهم.

لم يطل الحاج فهمي في كلمات الترحيب، سبق وأن رحب بهم فردًا فردًا عند حضورهم، قصد طريقًا مختصرًا إلى الهدف الذي اجتمعوا من أجله، قال متحدثًا بصوتهم جميعًا:

- إننا حملنا الحزب بكل خطاياه طوال السنوات الفائتة على كواهلنا من أجل مصالح الناس، فكان جزاؤنا مثل جزاء سنمار، شيدنا له بناءً عظيمًا، فألقانا من فوقه دون رحمه، بدلا من أن يحتضننا ويعتبرنا من سكان البيت وأهله، بعد وفاة حمادة بك، لم يعد الحزب يرشح أحدًا من أبناء مدينتنا، ذهب المقعدان إلى القرى الصغيرة من حولنا، رغم أن العدد الأكبر من أصوات الناخبين هنا في دوائرنا بالبندر، لكنهم هناك يسودون دوائرهم، ولا يستطيع أحد من مرشحينا دخولها، ونحن هنا نفتح لهم الأبواب، ننقسم ونتشرذم فنصبح مثل الغنمة الشاردة يلتهمها الذئب بينما قطيعها غافل عنها، الآن حان الوقت لننس خلافاتنا واختلافاتنا

وانتماءاتنا من أجل ما هو أكبر وأهم، ألا وهو صالح مدينتنا، وصالح أهلها وناسها الطيبين، ....

ظل الحاج فهمي يسهب ويسترسل في الأفكار التي طرحت وناقشها مع كبار البلدة من الأطياف المختلفة، اتفاقه مع القوى السياسية والدينية ألا يكون الشيخ إخلاص مرشحًا فقط لجماعة الإخوان، وإنما يصبح مرشحًا عن البلدة كلها، يقف خلفه المعارضون، ورجال الحزب الوطني أنفسهم. فهم في النهاية أبناء البلد ويهمهم صالحها ومصلحتها فوق كل اعتبار.

صادق الحضور على كلام الحاج فهمي وتأييده كأن الأمر كان مبيتًا من قبل، بينما حاول الشيخ إخلاص توزيع نظرات امتنانه على الحضور، وإظهار التقدير لهذه اللحظة من التأييد والمساندة.

حلمي الوحيد الذي قطع تلك المودة التي سرت على غير العادة بين خصوم اعتادوا على المنافسة التي غالبًا ما تتحول إلى عراك ومشاجرات في مواسم الانتخابات، واتته الشجاعة ليسأل الحاج فهمي عن السبب في الوقوف مع الشيخ إخلاص دون غيره من المرشحين؟

تململ الحاج فهمي في جلسته، وسرت همهمات غاضبة بين الحضور، قطعها الحاج فهمي قائلا بحزم رغم الابتسامة التي لم تفارقه:

- يبدو أن الدكتور حلمي لم يكن منصتًا لما قلناه، إذا لم يكن بوسعنا تغيير اختيارات الحزب وتجاهل أبناء مدينتنا، فبوسعنا إجبارهم على تغيير النتيجة التي يتوقعونها.

شوقي فكر أن يشد حلمي بعيدًا، ينصحه بالتعقل والبعد عن افتعال الأزمات وسط هذا الحشد من أبناء البلدة الذين نادرًا ما يجتمعوا معًا، لكن إمارات الجد والتحفظ التي بدت على وجهه منعته من المحاولة.

حلمي قال حذرًا، وهو يرمق الوجوه المتحفزة من أنصار الشيخ إخلاص:

- لكن الإخوان وجه آخر للحزب الوطني، وأعتقد أن النتيجة ستكون

واحدة، سواء نجح مرشح الحزب، أو نجح مرشح الإخوان.

كلمات حلمي دهمت الحضور وباغتتهم كمن ألقى حجرًا في بركة أفكارهم الساكنة، التفت الرؤوس جميعها نحوه، تشع بعلامات استفهام كبيرة، انتفض الحاج فهمي في مقعده، وتجهّم وجهه وغزته تعابير تشي بالغضب والشعور بالإهانة، خيم صمت يشي بالحرج بعد أن تلاشى الود الذي كان يسود بين الحضور منذ ولوجهم من عتبة باب البيت.

الطبيب الكبير الذي كان مرشحًا عن الجماعة في الانتخابات السابقة، رأى في كلام الدكتور حلمي مطبًا قد يعوق طريق مرشح جماعته، وقرر أن يزيحه عن الطريق بأية وسيلة، هز رأسه وقال هازئًا:

- هون على نفسك يا دكتور حلمي، خذ قرصًا مسكنًا يخلصك من الأرتكاريا التي تصيبكم من الإسلام والمسلمين.

حينها تكهرب الجو وازداد اشتعالا، هرع الشيخ إخلاص إلى القسس يحاول استرضائهم بعد أن أبدوا اعتراضًا واضحًا على الجمرة الطائفية التي ألقاها عضو مكتب الإرشاد وسطهم، بعضهم هدد بالانسحاب من الاجتماع، والبعض الآخر طالبه بتقديم اعتذار واضح عما قاله من حديث يزكي نار الفتنة، واتهم به الدكتور حلمي، وانشغل آخرون بعتاب الطبيب الكبير، والتأكيد على الإخوة بين المسلمين والأقباط، بينما سرح شوقي في أفكاره. لم يفهم لماذا حلمي وحده عارض وقوف البلدة ورجالها خلف الشيخ إخلاص، فكر للحظة في كلام عضو مكتب الإرشاد، وسأل نفسه إن كان موقف حلمي ينبع من عصبية طائفية حقًا؟.. لكنه سرعان ما نفى الهاجس عن نفسه، يعرف الدكتور منذ سنوات ولم يشعر يومًا باختلاف دينيهما، كانا معًا يعبدان الله الواحد، ويفهمان الدين على أنه وسيلة ليرتقي الإنسان بإنسانيته وبأخلاقه وبمجتمعه، لا أن يكون سببًا للتنابذ والتصارع.

سيف ناصر اتجه ناحية الشيخ إخلاص وأخذه وانتحيا جانبًا، يبحثان معًا عن وسيلة تعيد التوافق والهدوء إلى الاجتماع الذي عولا عليه كثيرًا لإحداث التوافق بين أبناء البلدة، لم ينس سيف للشيخ إخلاص وقوفه معه في صراعه مع حسام حامد، من ناحيته لم يدخر جهدًا رغم تركه الحزب القومي في التأثير على قياداته لتأييد الشيخ إخلاص رغم الاختلافات الأيديولوجية بين الفريقين والتي كانت تجعل من اتفاقهما أمرًا مستحيلا، حضوره اليوم كان تأكيدًا للمساندة التي لم يتوقعها أحد، وهو يجلس على رأس أكبر مؤسسة ثقافية في مصر، ترك أعماله وأشغاله من أجل هذا الاجتماع، قليلون من كانوا يعرفون أن سيف ناصر لم يحضر من أجل الانتخابات وحدها، سيف ناصر أقنع الحزب بالوقوف خلف الشيخ إخلاص ردًا للجميل القديم وأملا أن تضغط الجماعة على أنصار الإسلام السياسي ليخفوا من الضغوط التي يمارسونها ضد الديوان الذي طبعه لشاعرة مغمورة، المسألة بالنسبة له أعقد من فكرة إبرام صفقات مع أو ضد الجماعة، بقدر ما هي مع أو ضد سيف ناصر نفسه.

شوقي كان يتابعهما من بعيد، ولا يعرف لم طافت برأسه ذكرى زيارتهما القديمة لبيت الشيخ إخلاص، ولم راوده شعور بأن الشيخ إخلاص مجرد غشاش في وجه سياسي يدير صفقة يدرك أطرافها مدى كذبها، رغم ذلك يتواطئون على عقدها وإقناع أنفسهم وأنصارهم بصدقها، كان يضع علامات استفهام كبيرة على المشروعات التجارية التي تظهر كل يوم، ويعرف أن وراءها الشيخ إخلاص وجماعته، لم يفهم تلك الرابطة التي تجمع التجارة بالدين، كما لم يفهم تلك التي تربط ما بين السياسة والدين، استمع إلى شكوى كثيرين ممن أعطوا أموالهم إلى الشيخ إخلاص لاستثمارها، وفشلوا في فض هذه الشراكة أو الاستماع إلى شكوكهم وشكواهم بجواب سهل يتردد على ألسنة كل من قصدوهم للتوسط

بينهم وبين الشيخ إخلاص، (دا راجل يعرف ربنا)، هل ستكون تلك العبارة الإجابة الوحيدة لأسئلة التجارة والسياسة، الإجابة التي تعطي مبررًا لفعل أي شيء تحت ستار الدين.

جذب الدكتور حلمي من ذراعه وشده من بين الحضور إلى خارج الاجتماع، غير عابئ أن يلقي بتحية وداع على أحد، مرددًا بصوت هامس لا يعرف إن كان سمعه حلمي أم لا: (الإخوان لا يختلفون كثيرًا عن الحزب الوطني، لكن لا يوجد بديل، منذ وفاة الدكتور ولم يتقدم أحد للعمل العام، وهذه هي النتيجة).

***

(10)

كان يبرر لنفسه أنه لم يقم بالمجزرة، ولم يشارك فيها

عربة الشرطة عوت فتفرقت الرؤوس السوداء التي غطت الشارع وأفسحت لها طريقًا، لكنها مالت إلى جانب الطريق، ووقفت عند باب الحاج فهمي.

مكبرات الصوت التي يحملها الصبية والأخرى المثبتة فوق عربات النقل الصغيرة ظلت تصرخ بلا انقطاع:

إسلامية إسلامية.. لا شرقية ولا غربية.

ضحك حاتم فهمي وهو يهبط من باب السيارة قبل أن يتمكن السائق من الوصول إلى الباب قبله، أشار له بيده بما اعتقده أنه لا مشكلة.

هكذا تعود السائق من القيادات الكبيرة التي تزور القسم وتسوقه الظروف ليقلها إلى مكان ما، يتعاملون بعفوية وبساطة وعدم اكتراث مع الاحترام الزائد الذي يقدمه الضباط وضباط الصف والعساكر بالقسم.

قال حاتم بينما عيناه تتسعان وتتمددان لتحيطا بالوجوه التي ازدحم بها الشارع رغم الضجيج الذي يمزق طبلتي أذنه:

- ألم تصلكم الأخبار أنها أصبحت أمريكية خالصة؟

ثم التفت إليه، وقال:

- عد أنت إلى القسم، سأعود أنا بمفردي.

فتح السائق فمه محاولا أن يفهم ما يقصده الباشا القادم من العاصمة دون فائدة، هز رأسه عدة مرات بسخافة، وانحنى نصف انحناءة وهو ينسحب إلى الخلف قائلا:

- أمرك يا أفندم.

شيء ثقيل يجثم على صدره جعله لا يهنأ بشيء منذ تم تكليفه بتلك المهمة، جعله منشغلا عن كل ما حوله.

سير الأحداث في الأيام الأخيرة كان أسرع من أن تلاحقه التوقعات، كان ما يحدث في حوش بيت الحاج فهمي أكبر من أن يخفى على أحد، فما بالك برجال الحزب الذين يضعون آذانهم على كل حجر وشبر من الأرض، يتصنتون على خطوات الخصوم أينما ذهبوا، وأجهزتهم الأمنية التي لم تترك حزبًا أو فصيلا إلا وزرعت رجالها فيه.

في العوالم السفلية للسياسة لا يمكن ترك الأشياء تحدث بالصدفة، لأنها ببساطة قد تعني النهاية لكل أطراف اللعبة القذرة.

هرع مرشحو الحزب في الدائرة إلى مبنى المقر الرئيس الجاثم على كورنيش النيل لطلب دعمهم في مواجهة الاتفاق الذي تم في بيت الحاج فهمي.

العمدة الذي لم يغادر مقعده في المجلس منذ عشرين عامًا أقسم للقيادات أن أمناء الحزب بالدائرة وأعضاء المجالس المحلية من أبناء الحزب حضروا الاجتماع وقرأوا الفاتحة معهم على تأييد مرشح الإخوان.

بني أحلامه على أن يرث ابنه المقعد الذي احتله لسنوات، وليس على استعداد للتفريط في حلمه وحلم العائلة مهما كان الثمن، ولو اضطر إلى أن يقايض عليه بالدم، كان حلمًا مشروعًا في بلد لا حديث فيها يطغى على أحاديث التوريث. (ابن القاضي يصبح قاضيًا، وابن الخفير يصبح خفيرًا، وابن الرئيس يصبح ....).

لم تواته الجرأة أن ينطق بها بينه وبين نفسه، كان يرى أن المتنطعين الذين يجهرون بها في كل مكان ليس عندهم ما يخسرونه، أما هو ففي أمس الحاجة ليقف الحزب معه، ليس بدعة بين النواب أن يترك مقعده في البرلمان لابنه، إذا مات نائب أثناء عضويته يترك المقعد لابنه أو أخيه أو أي أحد تتوافق عليه العائلة، وعادة لا ينافسه حتى المعارضين على المقعد،

صارت عادة برلمانية متأصلة بطول القطر كله، شرقه وغربه، العمر لم يعد فيه بقية، من حقه أن يفرح بابنه في حياته ويطمئن على مستقبله.
استطرد صائحا بعد أن استحالت عيناه إلى جمرتين متقدتين:
- أنتم من صنعتم المشكلة، وأنتم من تملكون الحل.. لن أسمح أن يكون ابني هو الضحية.
المرشح الآخر كان يجلس على كرسي مستطيل في آخر القاعة محاولا كتم غيظه من تلميحات العمدة التي يحرص على ترديدها في كلامه كلما جاءت سيرة الانتخابات، وهو يردد في نفسه متهكمًا: (ترى ماذا قدم العمدة طوال هذه السنوات، أكثر من تسويد صناديق الانتخابات، ليورث ابنه مكانه؟!). فقد كان العمدة معروفًا بعدم نجاح أحد من المرشحين الآخرين أو مراقبي الانتخابات من دخول قريته أثناء إجراء الانتخابات، وأن الصناديق تخرج من دوائر القرية مكتظة بالبطاقات المسودة لصالح الهلال والجمل وحدهما، لكنه رغم ذلك بدا مطمئنًا بعد أن أُعلنت قوائم مرشحي الحزب وأدرج اسمه بها، بعد الهدايا الكبيرة التي أرسلها لرجل الأعمال الشاب الذي يعرف الجميع أنه أصبح الرجل الأول في الحزب، وبيده وحده أمور العملية الانتخابية كلها.
كان اليوم يسوده القلق والتوتر والغضب، اكتظت قاعات الحزب بالمرشحين من كل مكان يشتكون ويجأرون بمشكلاتهم التي تتشابه رغم اختلاف الدوائر ما بين صعيد مصر ودلتاها، أو ما بين الريف والحضر.
ولم يهدأ العمدة إلا بعد أن وعده أحد أعضاء مكتب السياسات أن يتولى ابن الحاج فهمي نفسه الأمن في الدائرة، وتأمين نجاح مرشحي الحزب، وابنه أولهم.
تجاهل حاتم الحشود التي تتمدد وتتلاشى في الشارع كفقاقيع من صابون وخطا خطوات ناحية باب البيت القديم، مهام كثيرة أسندت إليه بدت

أكثر صعوبة من إدارة وتأمين العملية الانتخابية، لكنه لم يشعر بثقلها كما يشعر بثقل هذه المهمة.

حتى عندما كلفوه بتجميل وجه الوزارة في وسائل الإعلام والدفاع عن موقفها من مذبحة اللاجئين السودانيين، لم يجد غضاضة في اتهام البسطاء الذين تجمعوا في الحديقة المواجهة للمفوضية العليا للاجئين بميدان مصطفى محمود بشرب الخمر ونشر الرذيلة، وهو مرتاح الضمير.

واختتم حديثه قائلا بفخر: (لذا كان حتمًا على الدولة التدخل لحماية الأخلاق والآداب العامة، وفض الاعتصام وإخلاء الحديقة).

هكذا سيتلقف المعارضون من أصحاب اللحى التي تحتكر الفضيلة، مبررات النظام، ويخرج علماؤهم على شاشات الفضائيات لأشهر يكفرون ويتوعدون الفسقة الذين يجهرون بالرذيلة، ويتغنون بموقف الأمن الشريف الحريص على حماية الأخلاق والآداب العامة، واتهام جمعيات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني بالمتاجرة بالحادثة لصالح الأجندات الغربية التي لا هم لها إلا محاربة الإسلام.

ستضيع دماء الأبرياء على إسفلت ميدان المهندسين تحت أحذية الذين فرحوا بإخلاء الميدان من أجل الاحتفال بالعام الجديد دون أن يعكر صفو احتفالهم تلك الوجوه السمراء المعذبة القادمة من الجنوب.

لن يتعرَّق من كلمات السيدة التي اتصلت بمقدم البرنامج تسأله عن الأطفال الذين قُتلوا في المجزرة وهل ماتوا سكارى، وعن صور اللاجئين وهم يصلّون وقوات الأمن تدفع بخراطيم المياه لتضرب مؤخراتهم أثناء الركوع قبل أن يطفئوا أضواء الميدان ويبدأوا المجزرة؟!

لم يكن يشعر بذنب تجاه ما حدث، كان يقول لنفسه، وهو يتفحص وجه المذيع الذي أصابه الذهول من كلمات المتصلة: فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.. الضحية والجزار، لن يتغير العالم إذا زاد عدد الضحايا رقمًا

جديدًا، يكفي البلاد ما بها من أوجاع، لم يكن ينقصنا إلا هؤلاء ليزيدوا من كراهية الناس لنا.
كان يبرر لنفسه أنه لم يقم بالمجزرة، ولم يشارك بها.
تلك الكلمات التي قالها للعامة عبر شاشات التليفزيون لن تغير حقيقة ما حدث، لا بالنسبة إلى رؤسائه بالوزارة، ولا بالنسبة إلى المعارضة والمنظمات الحقوقية، أو بالنسبة إلى العالم أجمع. لم تزد عن كونها مساحيق رخيصة لتجميل وجه النظام، ربما يزول أثرها قبل انتهاء الحلقة.
ترى أية مساحيق سيواجه بها الحاج فهمي اليوم؟!
كان يسأل نفسه قبل أن يستوقفه صوت عند عتبة باب البيت:
- حمد الله على السلامة يا باشا.. البلد نورت بقدومك.
التفت ناحية صاحب الصوت، وفاجأته ابتسامة بشوشة وذراعان يمتدان لاحتضانه، بينما كان شجن قديم يتبرعم في قلبه، شعر برياح تهب وتقتلعه من جذوره بمجرد رؤيته للشيخ إخلاص.
مد يده بتثاقل، وهو يلتفت ناحية الحشود المغيبة التي تجوب الشارع، وقد غطى الحماس وجوههم بلونه المتورد.
- أهلا بنائب المستقبل.
ابتسم الشيخ إخلاص ابتسامة مفتعلة وهو يضغط على كف حاتم فهمي ويحاصره بكفيّه، قائلا:
- يسمع منك ربنا.
لوح برأسه ناحية الحشود التي التهب حماسها بمجرد مصافحة مرشحهم لرجل الأمن القادم لتأمين الانتخابات، واستطرد قائلا:
- لا نريد لهؤلاء أن يعودوا إلى بيوتهم محبطين.. الإحباط يولد الانفجار يا باشا.
بادله حاتم نصف ابتسامة هازئة، قائلا:

- النار تحرق من يلعب بها.

- ربنا ما يجيب نار، ولا انفجار.. دا كفاية علينا تأييد الحاج فهمي ودعمه، دا يساوي عندنا كتير.

كان شيء كدبيب النمل يتصاعد إلى صدغ حاتم فهمي جعله لا يعقب على كلمات الشيخ إخلاص مكتفيًا بمراقبة أوراق الأشجار التي ارتجفت من ريح خريفية. من جانبه حرص الشيخ إخلاص على اللحاق بالمسيرة بعد أن مد يده مصافحًا:

- أتركك للحاج فهمي تأخذ منه البركة، ونَفَس سعادتك معانا غدًا، أنا استبشرت خيرًا عندما علمت أنك موجود معانا.

ضغط حاتم على كف يده، وربت باليد الأخرى على ساعده وقال:

- لسنا طرفًا في المعركة، مهمتنا الأولى والأخيرة الحفاظ على الأمن وتسهيل العملية الانتخابية.

ودعه، وعيناه تتخطيان الحشود التي زحفت في الشارع إلى البيوت الطينية الطيبة الراقدة عند أطراف البلدة في صمت قاتل.

بعدها انطفأت داخله الرغبة في زيارة أبيه، لم يكن قادرًا على ترديد جملته الأخيرة التي قالها للشيخ إخلاص من جديد على مسمع من أبيه. وربما لن يعطه الحاج فهمي فرصة ليشرح له، فارتد عائدًا قبل أن يتخطى عتبة البيت، وعاوده حنين جارف لطعم الأيام التي تركها هناك وراءه.

***

(11)

ريح خفيفة بمقدورها أن تكنس الأحلام بعيدًا

عندما دخل المصعد وجد وجهًا يعرفه بالكاد، لكن الذاكرة الملأى بالوجوه والأسماء لم تسعفه بالاسم، استسلم لقبلات الترحيب وهو يجاهد في استدعاء اسمه دون فائدة.

لم يكن بالشخص الذي يمكن أن يبادله بعض كلمات جافة ولا يهتم بردة فعله، كان من الوجوه التي تشي بسمو ما لا تجده إلا عند الكبار من الأدباء والمثقفين والفنانين، أو رجالات الدولة المرموقين، رجح أن يكون في الغالب أديبًا أو مسئولا كبيرًا من بلد عربي، وربما التقيا في مناسبة أو مؤتمر أو مهرجان ما. (يا لها من ذاكرة ملعونة).

هكذا قال في نفسه وهو مازال يبادله التحية بتحفظ- كما اعتاد مع كثيرين يلاقونه بترحاب الأواصر القديمة- حتى لا يكتشف أنه لا يتذكره ولم يتعرف عليه.

- لم أكن أتخيل أستاذ سيف أننا نقطن في نفس البناية.

لم يكن نطقه باسمه إلا تأكيدًا للافتراضات التي وضعها في رأسه، وقد قاله مصحوبًا بود زائد.

- هذا من دواعي سروري.. منذ متى وأنت في القاهرة، ولِم لم تحاول الاتصال بي؟

- بالطبع كنت سأتصل بك، لكنني كنت مشغولا بترتيب بعض الأمور المتعلقة بالأولاد.

تعرف كيفية الوضع بالعراق.. لم يكن تدبير خروج الأولاد من هناك أمرًا يسيرًا، كان أشبه بمغامرة كبيرة.

انفرج باب المصعد وتقدما خطوات حتى غادرا البناية ولفحتهما ريح محملة بغبار ثقيل، بادله بعض كلمات التعاطف وربت على كتف رفيقه الذي للآن لم يتذكر اسمه، وقال بأسف حقيقي:

- للأسف عندي موعد الآن لبرنامج على قناة فضائية، سأنتظرك غدًا بالمؤسسة. وحتى نلتقي فكر في نشر أعمالك الكاملة من خلالنا فهي فكرة تراودني منذ فترة، ولكن مشاغل العمل ألهتني عن الاتصال بك.

قال جملته الأخيرة لينفي عن نفسه شبهة عدم تعرفه عليه ونسيانه، أو تجاهل مثقف عربي كبير يراه لأول مرة ويتركه بهذا الشكل الخارج عن اللياقة، لم يفكر أن كلماته ستعد التزامًا بشيء ما في عنقه، اعتاد توزيع الوعود التي تنجح في تحييد أشد الخصوم، ثم معاودة تقييمها وفق حسابات المصالح والضروريات.

(المثقفون لا يكفون عن انتقاد كل شيء ولعكه)

هكذا قال لنفسه، ثم ركب سيارته ومرق بها بين الزحام.

***

كانت الكاميرا تنتظر بمكان يجعل النيل الذي يتهادى بوداعة في خلفية المشهد، استجاب سيف ناصر للمعد الذي هرول ناحيته مؤكدًا أنه تأخر عن الموعد والحلقة بدأ بثها منذ لحظات.

جلس في المكان المخصص، وترك نفسه للمخرج ومعاونيه حتى أصبح جاهزًا لبدء التصوير.

- اللعنة.. نشأت صدِّيق، الشاعر العراقي الكبير، كيف هرمت ذاكرتي بهذا الشكل؟!

قالها وفلاش الإضاءة يحتد في عينيه.

تابع الضيوف الذين يشاركونه الحلقة من خلال شاشة العرض وتمنى لو ينتهي الأمر سريعًا، يعرف أحد المدعوين من الصحافيين جيدًا، لا يجيد إلا

فن الصراخ وإلقاء الاتهامات على الآخرين ببراعة مذهلة.
الأيام تحتشد بالأحداث، قبيل نزوله اتصل به مكتب الوزير، مدير المكتب قال إن الوزير غاضب بشدة من حكاية ديوان الشاعرة المبتدئة الذي أصدرته المؤسسة وقلب الدنيا ولم يقعدها.

- أي ديوان؟

تساءل وكأنه الوحيد في مصر الذي لا يعرف الخبر.

- ألم تقرأ صحف اليوم، الصحافة كلها مقلوبة على ديوان هبة الشناوي؟

- هبة الشنااااوي؟!

نطق حروف اسمها وهو يستشعر معاودة اللذة دبيبها الخفيف في شرايينه.

لم يتعرف عليها حين دقت باب مكتبه بالمؤسسة وأصرت على مقابلته، حاولوا في السكرتارية معها أن تُعرِّفَ نفسها ليخبروا الرئيس، فاكتفت بمقولة: صديقة قديمة.

- صديقة قديمة.. إحنا هنهرج أنا في اجتماع مهم، وليس عندي وقت لأضيعه في هذه التفاهات.

صاح في الدكتافون حتى سمعه كل المحتشدين بسكرتارية مكتبه.

همست السكرتيرة بنعومة:

- يا فندم أنت بالتأكيد تعرفها.

ثم عادت لتتكلم بإيقاعها المعتاد وإن ضغطت على حروف الكلمات الأخيرة ربما لتأكيدها:

- أقصد هي تؤكد ذلك، وهي سيدة جميلة لا تكذب.

كان وقع (سيدة جميلة) حاسمًا وكافيًا لإلغاء كل الارتباطات والمواعيد.

في ذلك اليوم انقضت كل المواعيد بسرعة مهما كانت أهمية الموضوعات التي تناقش.

في الحقيقة كان يستشعر رتابة تجعله غير راغب في العمل، لو كان بمقدرته لترك كل شيء وهرب لأيام إلى الساحل الشمالي، لكنه لا يستطيع أن يترك مكتبه ولو للحظات.

أحيانًا يشعر أن هناك من يتربصون به وينتظرون نهوضه من على كرسي الرئيس ولو ليقضي حاجته لينقضوا عليه بلا رجعة، لذا كثيرًا ما ترك بيته وأولاده، وفضل النوم بالاستراحة التي أعدها داخل مكتبه.

لم يكن النوم يأتيه إلا هناك بالقرب من الكرسي الملعون الذي يتوق إليه الجميع بالمؤسسة وخارجها، بمجرد أن يوقعوا في دفاتر الحضور منذ يومهم الأول وتتجه أنظارهم إليه.

حتى أولئك الذين لم تربطهم صلة بالمؤسسة، ودخلوها من أجل نشاط ثقافي أو أدبي أو فني، طاف بمخيلتهم وراود أحلامهم، سعوا إليه سواء بمحاباة المؤسسة أو مهاجمتها بشراسة العاشقين، فمقعد رئيس المؤسسة هو المقعد الأكثر تأثيرًا في الوزارة، ربما أكثر أهمية من مقعد الوزير نفسه.

أحيانًا لا يخشى من التصريح بذلك أمام الساسة والمثقفين وكبار المسئولين، فالجميع يعلمون أن اختيار رئاسة المؤسسة لم يعد واحدًا من اختصاصات الوزير، وأن اختيار رئيسها يتم في مبنى الحزب الحاكم القابع على كورنيش النيل، بالتحديد من مكتب لجنة السياسات وأمينها العام.

ما إن وقعت عيناه عليها انزاحت تلك الطبقة اللزجة التي تصاحب المرهقين المتعبين الذين لا يجدون جديدًا يحرك حماسهم ويدفع الدماء إلى أوردتهم فتتدفق وتتورد ملامحهم بشبق الحياة.

كانت تضج بأنوثة لافتة متفجرة توقظ كل ما هو ذكوري حولها، ولم تكن لها صلة أبدًا بالبنت التي تشبه شجن ربابة.

قالت وهي تحاول أن تسحب كفها من حصار كفيه:

- يا ترى فاكرني ولا نسيتني؟

- يااااااه.. أنتِ ثقتك فيّ وحشة ليه كدا، هو فيه حد ممكن ينسى الأقمار والورود؟

- هههههههه.

ضحكت وقد استطاعت أن تحرر كفها من بين يديه بعد أن غادر مكانه خلف مكتبه ليجلس في قبالتها، وعادت لتقول بنعومة ودلال:

- تبقى أكيد فاكر وعدك ليّا؟

- أوعى تقوليلي إني وعدتك بالزواج؟!

- هههههه.. مش للدرجة دي.

- خلاص يا ستي نوفي بيه حالا، وحتى لو رسيت للجواز، مفيش مشكلة، العرفي موجود.. هههههه.

حينها نسيت أنوثتها وغنجها للحظات وفتحت حقيبتها وأخرجت بعض الأوراق وناولتها له.

حين طالع اسمها على الورقة الأولى لم يصدق نفسه، ألقى بالأوراق فوق مكتبه، وأبدى اندهاشًا بعدم تعرفه عليها.

- هبة.. هبة الشناوي.. معقولة؟!

ظل ينبش في ذاكرته عن صورتها القديمة، المرات المعدودة التي التقيا فيها، ذلك الأثر الأخاذ الذي تتركه خلفها يحفر في أعماق الروح حفرًا عميقًا، كيف لم يتعرف عليها منذ الوهلة الأولى؟!

لا يعرف لِم لاحت من بعيد صورة شوقي فانطفأت جذوة اشتعلت داخله منذ وقعت عيناه عليها هذا المساء.

عادت النار لاشتعالها من جديد حين نهضت واقفة ومالت على المكتب تسحب أوراق ديوانها، وهي تشير إلى وعده القديم بنشر قصائدها بمجلة المؤسسة. الآن وقد أصبح رئيس المؤسسة ليس أقل من أن ينشر لها ديوانها الأول، قالت إنه سيكون بمثابة تذكرة لدخول الحياة من جديد،

ومفتاحًا لأبواب غرف السعادة التي أغلقتها منذ سنين.

تنهدت بأسى وحرقة وذكرت أشياءً عن أحلامها الكبيرة التي بمجرد أن تأتي ريح خفيفة تكنسها بعيدًا، عن تعبها من ملاحقة أحلامها في صناديقها الوردية التي سرعان ما تتحول إلى صناديق للقمامة.

لمح في عينيها إصرارًا موجعًا، وحشرجة أقرب للبكاء تخالط صوتها الذي فقد نعومته المغوية.

لم يكن مستعدا لأن يضيع لحظة واحدة في كل تلك الترهات التي تداهم البشر بين الفنية والأخرى عن الأحلام والانكسارات، وبخاصة بعد أن طافت برأسه صورة غرف السعادة التي تحدثت عن مفاتيحها، ولم يعرف لها مرادفًا آخر بخلاف استراحته الملحقة بالمكتب إن جمعته بها.

قال حاسمًا للأمر:

- يطبع حالا.

***

من خلال سماعة الأذن وصله صوت المذيعة الجميلة تكرر عليه ما قاله أحد الحضور في غيابه، وتسأله تعقيبًا على ما قال.

حتى يعطي لنفسه مزيدًا من الوقت لتنميق الأفكار، قال:

- لم أسمع السؤال جيدًا.

لمح ارتباكًا وحركة بين الواقفين خلف الكاميرا بينما كانت المذيعة تعيد عليه السؤال.

أخذ نفسًا عميقًا وحدق في الشاشة الصماء، وقال:

- في الحقيقة علينا أن نتخلى عن الكلمات الإنشائية الكبيرة التي اعتدنا على ترديدها في مناقشة قضايانا المصيرية، والتي قادتنا إلى الوضع العربي الراهن. سيدتي إنك تتحدثين عن بلد وصل عدد سكانه إلى قرابة التسعين مليون نسمة، ويعاني أهله من مشاكل البطالة ومشاكل في الصحة

والتعليم وغيرهما، وإذا كان على مصر دور فهو دور سياسي بالدرجة الأولى وليس بالضرورة أن يكون هذا الدور من خلال استضافة الإخوة العراقيين، ففي تجارب سابقة ظهرت العديد من المشاكل التي نعاني أثرها إلى اليوم. عندك على سبيل المثال لا الحصر مشاكل تتعلق بجنسية أبناء الأم المصرية المتزوجة بأجنبي وحالاتها كثيرة ومعروفة، والأزمة التي حدثت من السودانيين بأحد الميادين الهامة بالعاصمة وتناقلتها وكالات الأنباء العالمية، وما جنيناه من وقوفنا خلف القضية الفلسطينية منذ نشأتها، لقد حان الوقت في رأيي أن تلتفت مصر لمصالحها بعيدًا عن قضايا إخواننا الذين تحملنا الكثير من أجلهم على حساب مصالحنا الوطنية. يكفي أن تلحظي ارتفاع الأسعار الذي صاحب نزوح العراقيين إلى مصر، البلد لا تحتاج إلى مزيد من المشاكل.

واصل حديثه بينما كان يسمع صراخ الصحفي المعارض الذي حاول مقاطعته، لكنه لم يلق لكلامه بالا.

لمح المخرج يشيح بوجهه بعيدًا ويشير بيده إلى العاملين معه امتعاضًا، بينما المذيعة الجميلة تلقفت كلامه وألقت بالكلمة إلى الصحفي الثائر.

تابعه بالهدوء ذاته الذي كان يتحدث به.

(تسطيح المشكلات بهذه الصورة أمر غير مقبول.. الأسعار في ارتفاع مستمر بسبب الفساد المستشري في الكيان الإداري للدولة وسيطرة رجال الأعمال على الحكم، وفشل الحكومات المتعاقبة في تقديم شيء للمواطن البسيط وتخلي الدولة عن دورها، ولا علاقة له من قريب أو بعيد بوجود الإخوة العراقيين بيننا. كيف يريدون لمصر هذه الصورة الباهتة المخزية؟ الدول الخليجية فتحت أبوابها للعراقيين، تركيا فتحت أبوابها لهم، سوريا والأردن رغم ظروفهما الاقتصادية استقبلا العدد الأكبر من النازحين، ومصر تتخاذل في المأزق الذي يمر به الشعب العراقي.

الشعب المصري بريء مما يردده هؤلاء المتأمركون، بيوتنا مفتوحة لكل عراقي وعربي ليقتسم معنا لقمتنا، لقد فتحت العراق بيوت الكثيرين من البسطاء في هذا البلد، وجاء الدور علينا لنرد الجميل لهم.

وللأسف نسمع مثل هذا الكلام الفارغ من الأستاذ سيف المثقف الكبير والعروبي القومي سابقًا، الذي نجحت السلطة في تدجينه لصالح أفكارها التي تختزل الوطن في مجموعة من رجال الأعمال الذين لا هم لهم إلا مصالحهم التي ارتبطت ببيع وشراء كل شيء بما فيه الضمائر الحرة).

***

(12)

متى يتخلى الولد عن عناده ويعود إلى حضن أبيه؟!

تحت ظل شجرة عتيقة تشعبت جذورها وامتدت فروعها المورقة، جلس الحاج فهمي فوق مقعد من الجريد، يبدد السأم الذي غزا حياته بتصفح جريدة بين يديه، ويرشف رشفة من كوب النعناع الساخن، ثم يضعه أمامه.

لاح دبيب خطوات حاتم- في الممر الطويل الذي يشطر حديقة البيت إلى شطرين- في أذنيه. دون أن يرفع بصره عن الجريدة، عرف أن ابنه عاد، لا يخطئ أبدًا دبيب خطواته، ذلك الدبيب الذي افتقدته الدار منذ سنوات بعيدة، ما زال وقعه على بلاط الحديقة عالقًا، يرن في أذنيه ولا يفارقهما رغم سنوات البعاد.

لم يكن للبلدة كلها حديث إلا عن حاتم فهمي وأبيه، كانوا يتحدثون عن كونهما خصمين لم يتواجها من قبل، حتى أتت الانتخابات كساحة للنزال بينهما، ليفرض أحدهما إرادته على الآخر، لكنهما أثبتا العكس.

ابن الحاج فهمي الذي جاء مع قواته ليشرف على العملية الانتخابية فلم يشعر به وبجنوده أحد، جلس في الدائرة الرئيسية بمدرسة الراضي، في زاوية جانبية بحوش المدرسة تحت شجرة الصفصاف العتيقة، اختار مقعدًا ليجلس فوقه واضعًا قدمًا فوق أخرى وممسكًا بجريدة بين يديه ليتصفحها، وترك جنوده ينظمون دخول الناخبين للإدلاء بأصواتهم، ثم خروجهم.

لم يمنع أحدًا، أو يُشر على أحد برأي، ولم يترك الجموع تتكدس في حوش المدرسة وخارجها كعادة كل انتخابات.

سارت الانتخابات بسيولة لم يتخيلها أحد، ولا مشكلة واحدة حدثت، حتى تشجع كثيرون سمعوا بما يحدث في اللجان وأتوا ليدلوا بأصواتهم، وليروا بأعينهم ما كان يظنونه مستحيلا.

(كانوا مثل نسمة صيف طافت بنا دون أن نشعر بها).

هكذا كانوا يقولون لأنفسهم، وحين ينتبهون لكلماتهم وأوصافهم التي أطلقوها مع ضحكاتهم، يضربون أيديهم كفًّا بكف، ويتعجبون أن تصدر منهم تلك الأوصاف، ويكون المقصود بها جنود الشرطة والداخلية وعصيهم التي لم يُسمع لها صوت.

مر اليوم وكأنه حلم، أو مشهد تليفزيوني يشاهدونه مع أولادهم وزوجاتهم لانتخابات تجري في بلاد الشمال الأوروبي التي يلفها الصقيع والديمقراطية والأمان، وليست بلادهم الحارة التي تضج بالانتهاكات والغضب.

نسوا الانتخابات وما جرى بها، والأصوات التي حصل عليها الشيخ إخلاص، وجعلته أول المتأهلين لجولة الإعادة، وخروج ابن العمدة خاسرًا من الجولة الأولى رغم تسويد أغلب الصناديق القادمة من قريته، ولم يبق على ألسنتهم إلا سيرة الحاج فهمي، وابنه الذي أرسله الكبار في العاصمة ليكسر إرادة ناسه وأهله لصالح أصحاب السلطة والنفوذ.

لكن الظُفر لم يرد أن يخرج من لحمه. خدعهم حاتم فهمي وجاء ليكمل السيناريو الذي دبَّره الحاج فهمي في بيته، ونفَّذه ابنه يوم الانتخابات.

هكذا كان يردد أنصار العمدة المصدومين في نتيجة مرشحهم التي لم تمكِّن ابنه من دخول جولة الإعادة وضياع المقعد من العمدة وابنه، سارعوا باتهام الداخلية وقيادات الحزب في البلدة بالتواطؤ لصالح الشيخ إخلاص وجماعته، وتوافق معهم بقية الخاسرين في ادعاءاتهم.

أما الشيخ إخلاص نفسه رغم حصوله على أعلى الأصوات بفارق كبير عن أقرب منافسيه، إلا أن غضبه تفجَّر حين سمع أن الأصوات التي حصل

عليها لم تبلغ النصاب القانوني لإعلان فوزه بالمقعد، وتتطلب منه خوض جولة الإعادة.

هدد وتوعد واتهم الجميع بمؤامرة كبرى حتى لا يعلن فوزه الكاسح بالمقعد. ورغم عدم إعلان لجنة الفرز النتائج الرسمية إلا أن الشيخ إخلاص في لحظات كان قد نجح في حشد أنصاره بالآلاف أمام لجنة الفرز، تهدد وتتوعد إن لم يعلن فوز مرشحها بالمقعد بإحراق البلدة وإشعالها.

الأستاذ جمال الأسيوطي المحامي الذي ضمن وفق الأرقام أن يكون المترشح الثاني الذي يدخل جولة الإعادة بعد الشيخ إخلاص، تسحَّب دون أن يشعر به أحد وخرج من لجنة الفرز ماشيًا بزهو الظافر، وأومأ لأنصاره أن ينسحبوا بهدوء.

كانت المفاجأة بنجاحه ودخوله جولة الإعادة أكبر من أن يستوعبها، بمجرد أن ظهرت النتائج الأولية للفرز، فوجئ باتصال من أمين عام الحزب الوطني بالمحافظة يطلب مقابلته على وجه السرعة، لم يكن يحتاج إلى جهد لمعرفة سبب المقابلة، خرج الحزب من الجولة الأولى خالي الوفاض، ويحاول تجميل وجهه بضم المستقلين، من جانبه كان على استعداد أن يضع يده في يد الشيطان من أجل اقتناص الفرصة التي لن تتكرر.

فجأة شعر أنصار الشيخ إخلاص بانسحاب أنصار منافسهم الأخير، فعلت تكبيراتهم عاليًا تعلن النصر.

هرع الشيخ إخلاص إلى لجنة الفرز ليتأكد من حسم النتيجة، لكن المستشار الجالس أمام الصناديق قال بهدوء بعد يوم طويل شاق ترك آثاره على ملامحه المجهدة:

- اسحب أنصارك يا شيخ علشان نعلن النتيجة.

تعجَّب الشيخ إخلاص، وقال مستنكرًا:

- النتيجة أعلنت والناس كبَّرت وفرحت يا باشا.

فاستفز رئيس الدائرة الذي صاح منفعلا:

- إنت مجنون يا راجل أنت؟ مفيش حد بيعلن النتيجة غيري أنا، وأنا طلبت من كل المرشحين سحب أنصارهم حتى لا تحدث مشادات ومشاحانات بين الناس، ويمر اليوم على خير.

ورغم المحاولات التي بذلها وكلاء بقية المرشحين مع الشيخ لإقناعه، إلا أن الشيخ إخلاص لم يستجب ويسحب أنصاره إلا بعد أن ألم التعب بالجميع وتداعى الأنصار. سحب نفسه خارجًا، وسمعه الناس يقول للطبيب الكبير الذي انتظره بالسيارة:

- ديل الكلب عمره ما ينعدل.. زقولهم شوية صناديق في الزحمة علشان يدخلونا الإعادة.

ورغم أن الكل يعلم من كان يقصدهم بكلامه، إلا أن الحاج فهمي أوجعته الكلمة حين وصلته، صاح في البستاني الذي جاء ليقلم أغصان الأشجار، ويحكي ما جرى في ذلك اليوم، وما يتداوله الناس من حكايات لم تصل إلى أذنيه:

- من يقصد ابن الحلاق.. دول أسياده وأسياد أسياده؟!

في هذه اللحظة تيقن أن مشاعر الأبوة لا يمكن لأحد أن يضعها في خزانة من الثلج ويغلق عليها لتتجمد، لأنها في لحظة رغمًا عن كل شيء تدب حرارتها في القلب من جديد وتذيب الثلج المتراكم حولها.

كان مثله مثل أهل البلدة، راح يتساءل في نفسه: لماذا ارتضى ابنه أن يأتي إلى هنا ليرفع العصا في وجه أهله وناسه، لماذا لم يطلب أن يذهب إلى بلدة أخرى بخلاف بلدته، لماذا لم يعتذر عن الاشتراك في الانتخابات كلها، ماذا سيقول للناس إن جاءوا يشتكون من بطش ابنه، وقيامه بالتزوير ضد المرشح الذي دعاهم أبوه لانتخابه؟ ساعتها لن يجد إجابة يقولها لهم، كل ما سيستطيع فعله أن يحمل عصاه التي يتوكأ عليها ويتقدم

أهله وناسه، ليرى ماذا سيفعل حاتم وزمرته معهم ومع أبيه، وهل سيترك رجاله ليهبطوا بعصيهم فوق رأس أبيه وكرامته؟!

من أين أتى بهذه القسوة في مواجهة أب لم يكن له هم إلا جعله ابنًا يليق بوريث لأمجاد البيت، يحافظ عليها ويزيدها لتنمو لأولاده من بعده؟!

لكن ما كان يظنه اختبارًا عسيرًا سيدخله مضطرًا لآخر مرة في مواجهة ابنه، اختبار النهاية الذي سيقطع الشعرة التي ما زالت تربط بينهما، برغم قطيعة السنوات الطوال، تبدل إلى فرحة طاغية يحاول أن يكتمها داخل قلبه حين يردد الناس على مسامعه عن تلك المؤامرة التي شاركت فيها الداخلية لصالح حاتم بك من أجل أبيه وكلمته.

حتى إن كانت المؤامرة المزعومة ضربًا من تخيلات العامة وخيالهم، تلك الشائعات أرضت غرور مشاعر مكبوتة حرمه ابنه من إخراجها إلى النور كبقية الآباء.

كان يسأل نفسه بأسى: (متى يتخلى هذا الولد عن عناده ويعود إلى حضن أبيه؟). ويظل ينتظر، وينتظر.

انتظر حتى شعر بأنفاس ابنه تقترب، فاقشعر لها بدنه وحاول تفادي القبلة التي طبعها حاتم فوق رأسه، لكنه لم ينجح.

جنَّب الجريدة بعيدًا وتطلع إلى الابن الذي لم تتغير ملامحه كثيرًا برغم السمنة التي بدت واضحة.

راقب كل منهما الآخر للحظات صامتة، كل واحد منهم ينتظر بصبر أن يهمس رفيقه بالجملة السحرية التي تفتت ثلج المشاعر بدفئها الحاني.

لكنهما حافظا على ثلج مشاعرهما وظلا صامتين.

اجتاحت الأب عبرة متجددة وهو يقول:

- ما الذي ذكَّرك بأبيك الآن؟!

على المقعد الجريد المجاور جلس حاتم محاولا التخلص من عبء السنوات الطوال التي أبعدته عن جدران البيت، وجعلت الكلمات ثقيلة على شفتيه، لا يستطيع تحريكها.. استنشق نفسًا عميقًا معبقًا برائحة النعناع والريحان اللذين يفوحان في المكان، ليساعده على دفع الكلام إلى خارج حلقه، قائلا:

- إحنا ولاد النهاردة يا حاج.

(أن تعود الآن خير من ألا تعود أبدا).

أجاب الحاج فهمي في نفسه، وهو ينادي على العامل الذي كان مازال مشغولا بتنظيف الحديقة من أوراقها التي أسقطتها الريح وري أشجارها العطشى، ليصنع لهما فنجانين من القهوة.

***

في قرارة نفسه لا يعرف حاتم ما الذي أتى به إلى هنا، وكيف واتته الشجاعة هذه المرة أن يكسر حائط الزجاج الذي فصل بينه وبين أبيه كل تلك السنوات، ويعبر من عتبة البيت متخطيًا الطريق الطويل ليجلس الآن أمام أبيه كولد مطيع.

منذ وطأت قدماه أرض البلدة للإشراف على العملية الانتخابية طاف حول البيت مرات ومرات، وكلما اقترب من عتبة الدار وجد الحائط الزجاجي الصلد جاثمًا في وجهه، يحاول أن يتخطاه دون فائدة، فلا توجد مساحيق يتجمل بها أمام أبيه، ماذا سيقول له بعد كل هذه السنين، هل سيقول له أنه أصبح الابن الذي أراده دومًا، الشرطي الذي يخافه الناس ويخشونه، إن سأله عن مهمته التي جاء إلى البلدة من أجلها، هل سيقول له، لا.. لا.. لن يعطه الفرصة حتى يجيب، سيقول له جئت من أجل قتل أبيك، كلاهما يحفظ الآخر عن ظهر قلب، فلا يملك إلا أن يعاود أدراجه إلى استراحته بشقق الضباط، وفي نفسه غصة لا يستطيع أن يفصح عنها

لأحد، غصة فقد المقربين والأحبة؛ مرة بالموت الذي حلقت غربانه السود وخطفت أمه من بينهما، أمه التي ما زال يتذكرها كملاك حلق بأجنحة المحبة ساعة وسارع بالرحيل قبل أن يرتوي الصغير ويشبع من حنانها.

ومرة بالبعاد والقطيعة مع من يحب.. ذاق مرارته مع أبيه، وها هو يتجرعه مرة أخرى مع شاهندة وصغيرتيه.

يعرف أن شاهندة محقة في كل ما قالته حين صحبت ابنتيه وقررت الانفصال عنه وتركه وحيدًا في فراغ كبير، ينمو يومًا بعد يوم، حتى توحش ولم يعد قادرًا على مواجهته وحده، رغم كل الوجوه التي تحيط به.

كانت ترى في علاقته مع هبه خيانة لا تستحقها بعد أن حبست روحها بين راحتيه، ولم تكلف نفسها يومًا ولو بسؤال عما سيفعله بروحها وحياتها.

كان يعرف أنها محقة، لكن هبه بالنسبة له شيء آخر، شيء مثل القفز عاريًا في النيل غير عابئ بعيون النسوة المتلصصات على الشطوط وهن يغسلن الصحون، مثل ساحرة شريرة تنجح في استنهاض شياطينه الشرسة وإخراجها من مكامنها العميقة لتمارس ألعابها المحرَّمة، ثم تعيد ترويضها من جديد، استطاعت أن تمنحه الإحساس بأنه حر طليق، ليس بحاجة للوقوع في أسر قوانينهم، وأفكارهم، وقواعدهم، تجرد معها من كل الأقنعة التي حاصروه بها طيلة الوقت.. أصبحت عالمه الذي يتطهر به من زيف ما حوله وخداعه.

وربما ساهمت أكثر في إجادته التخفي والتقنع وفق قوانينهم، بعد أن وجد عالمه الذي يمارس فيه حريته دون رقيب أبوي، أو سلطوي.

ربما لهذا السبب وافق على قبول المهمة، بالرغم من سوداوية التخمينات والتوقعات التي رسمها رأسه لخطة اقتحام بيت أبيه، لكنه تأكد من نجاحها عندما وقعت الأوراق والمنشورات التي توزع ضد الشيخ إخلاص بعد الجولة الأولى للانتخابات بين يديه.

شعر بأمان حقيقي بمجرد عبوره من عتبة الباب، عندما بدت ظلال طفولته أمامه على بلاط الحديقة ببراءتها القديمة، أوراقه الصغيرة التي خبأها بين لحاء الأشجار ما زالت تحتفظ بألوان رسوماته المرتجفة من عصا الأب، تلك الألفة التي أطلت من ضلفتي نافذة الماضي، مشرعتين على شمس حياته البعيدة التي ما زالت بقدرتها أن تُدخل الحرارة والدفء إلى قلبه، وتستجلبان أصوات طيوره الرابضة فوق أشجار حديقته.

ذلك الإحساس الذي كان يفتقده طيلة سنوات عاشها واهمًا بقدرته على كسر تلك السلطة الأبوية الجبارة، تلاشى، وها هو مع الأيام يكتشف كم كان مخادعًا لنفسه. ها هو يقطع تلك المسافة في الزمان والمكان ليعود كما أراد له والده دائمًا.

أرخى كل أسئلته القلقة جانبًا، وجلس هنا أمامه يحتسي قهوته المرة، وربما راقت له فكرة الانصياع لسلطة الأب بعد أن اعتادها وأصبح من عُتاة متقنيها.

- يا ترى يا حاج تعرف مين اللي بيوزع الورق ضد الشيخ إخلاص؟

سأل حاتم أبيه دون أن ترتسم على وجهه ملامح محددة.

- أية أوراق؟!

تساءل الحاج فهمي متعجبًا.

ضحك حاتم فهمي من قلبه ضحكة عالية سقطت على أثرها بعض أوراق الأشجار الصفراء، قائلا بتخابث وسخرية:

- يا حاج.. اطلع من دول.. أنت تريد أن تحرك العالم بأصابعك بينما تشرب نعناعك الساخن.

لم يكن يساور حاتم الشك أن أباه وراء توزيع المنشورات ضد الشيخ إخلاص، أوراق تعدد القضايا التي رفعها ضده عدد من أبناء البلدة والقرى المجاورة بعد أن أخذ أموالهم لتوظيفها، ولم يُعدها لهم بحجة

الخسارة، مصحوبة بصور صحف الدعاوى والأحكام التي صدرت فيها، سواء بالتصالح أو بالبراءة.

في مثل هذه الأجواء المشحونة بالمنافسة والصراعات يتعطش الناس لخبر أو معلومة، ثم يعاودون طرحه كلٌّ حسب هواه ومصالحة. يلتبس الأمر عليهم وتتداخل فيه الحقيقة بالأكاذيب، الصدق بالإشاعة، النسيان بالدعاية، الوهم والخرافة بمصالح الأشخاص وتطلعاتهم.

سيرون في الأوراق ما يريدون أن يروه، وتعمى أبصارهم عما لا يريدونه. يعرف أن أباه الوحيد الذي يعرف كل كبيرة وصغيرة عن عائلات البلدة وأهلها وحكاياتها ومشاكلها، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يعيد هذه الأوراق إلى الحياة بعد أن نسيها الناس.

- وما مصلحتي أنا يا أبو العريف، وأنا اللي جمعت البلد حوالين إخلاص.. وإنت عارف؟!

اكتفى حاتم بابتسامة ساخرة مكذبة لكل ما قاله أبوه، كان متأكدًا أن ما يشير إليه أبوه غير صحيح.

جمال الأسيوطي استولت عليه الفرحة ولم يستطع الخروج من أسرها، بنى كل رهاناته على تأييد الحزب الوطني له في جولة الإعادة.

من جانبه لم يكن حاتم مضطرًا لطرح أسئلة يصعب أن يجد لها إجابات عن تغير موقف أبيه من تأييده للشيخ إخلاص، كان يعرف أن أباه مثل الأرض الصلبة الوعرة التي يصعب الكشف عما في أعماقها، لكنه رجَّح أن حمى الوجاهة والنفوذ التي تسكن جسده وراء هذا الأمر، لو نجح الشيخ إخلاص لانفض سحر الزعامة التي يحرص الحاج فهمي على الحفاظ على هالاتها من حوله، وانصرف الناس بمطالبهم وحاجاتهم إلى بيت النائب الذي لا يبعد عن بيوتهم وخطواتهم.

اغتاظ الحاج فهمي أكثر من تلك الابتسامة الصامتة الطموحة التي لا تخلو من تيه وإعجاب تؤكد أن ابنه كبر، وأصبح قادرًا على أن يقرأ في عينيه ما يحاول أن يخفيه، حتى لو تمنى في قرارة نفسه أن يكون ابنه هو النائب عن الدائرة، فلماذا يصنع له سدًّا لا يستطيع أن يتخطاه. عليه أن يبدأ في الهدم قبل إتمام البناء. استند على عصاه واقفًا، مستطردًا:

- إحنا ما عدش يهمنا مين اللي ينجح بعد ما سقَّطنا مرشح الحزب الوطني.. لا هتفرق إن نجح إخلاص ولا الأسيوطي.

لم يعرف حاتم فهمي من أين واتته السعادة، وهو ينصرف عائدًا إلى اجتماع القيادات الأمنية للتنسيق بشأن جولة الإعادة، يراجع خطة مفاجأة الجماعة والقبض على القيادات ليلة الانتخابات، منع الأنصار من التجمع حول مراكز الاقتراع، الاتصال بالعمدة وإقناعه بالإبقاء على ولائه للحزب، مع وعده أن يتم ترضيته في انتخابات الشورى، وأن يحتفظ بالفرصة لابنه في الانتخابات القادمة بدلا من أن يخسرها إلى الأبد. احتشاد القوات بكثافة أمام اللجان وتعطيل سير العملية الانتخابية بكافة السبل، وإن استدعى الأمر إغلاقها تمامًا في وجه الناخبين. الأوامر جاءت صريحة أن يحسم الأمر منذ الصباح بلا تهاون، حتى لا تخرج الأمور عن السيطرة. كل الظروف تحالفت لصالح مهمته التي جاء من أجل تحقيقها، جاءته أخبار سيف ناصر الذي انقلب على الشيخ إخلاص وجماعته بعد أن كان حليفهم الأول. عرف من اتصالاته برجال الحزب القومي بالبلدة أن سيف اتصل بهم وبشباب الحزب لتذكيرهم أنهم وقفوا مع إخلاص من أجل إسقاط ابن العمدة مرشح الحزب الوطني، وأن وقوفهم معه في جولة الإعادة يعد خيانة لمبادئ الحزب.

كان يعرف أن غضب سيف وثورته وانقلابه على الشيخ إخلاص، لم يكن له علاقة بالحزب ومبادئه، وإنما بديوان هبة الشناوي الذي زلزل

الدنيا من تحته، وجعله يستعين بالشيخ إخلاص للضغط على الجماعات المتشددة والمشايخ لتخفيف انتقاداتهم له ولمؤسسته، لكن الشيخ إخلاص حين عرض الأمر على جماعته تلقفوا الخبر واستغلوا الديوان في دعايتهم الانتخابية بالهجوم على الحكومة ومؤسساتها والضحك على البسطاء بشعارات الدين لحصد أصواتهم، كما هي عادتهم دائمًا.. يلعبون لصالح مخططاتهم فقط.

لكن ما لم يتوقعه حاتم فهمي أن تتغير خريطة البلدة في الأيام القليلة التي فصلت ما بين الجولة الأولى وجولة الإعادة بهذه الصورة، وأن تميل كفة الميزان لصالح جمال الأسيوطي المحامي.

فمن يصدق أن الجسد المتيبس على أفكاره البالية، ينتفض مرتين، مرة ضد الحزب الوطني ومرشحيه، وأخرى ضد الشيخ إخلاص وجماعته، خلال أيام معدودة.

غريب أمر هذا الوطن الذي لا يستطيع أحد أن يتنبأ بأفعاله المباغتة.

لكنه رغم ذلك، ورغم ما يقوم به الدكتور حلمي في توعية الناس بدجل وخزعبلات الشيخ إخلاص، واقتناع شباب الكنيسة بعدم انتخاب مرشح الإخوان، وانقلاب سيف وحزبه عليهم، وما يفعله الحاج فهمي سرًّا بتحريض الناس ضد الشيخ إخلاص، إلا أنه يعرف المهمة الشاقة التي في انتظاره هو ورجاله، في ظل الحشد الذي اعتادت الجماعة عليه، وأصوات البسطاء الذين يُستغلون مرة باسم الدين، وأخرى تحت وطأة الحاجة للمواد التموينية التي تحرص الجماعة على توزيعها عليهم قبيل الانتخابات.

***

(13)

يقضي الساعات فوق مقعد برصيف المحطة متأملا البشر في سفرهم المتواصل إلى محطة مستحيلة

أي بشاعة تدور برأس صاحبه هذه الليلة؟

تساءل سيف وطرد الهاجس عن رأسه.. صعد بنظره ناحية البرج المقام بالجهة المقابلة التي يفصلهما عنها البحر.

تعجب أنه لم يلحظ وجود البرج من قبل رغم اعتياده السير في الطريق ذاته كلما قادته قدماه إلى الفيوم، وهو عادة لا يترك شهرًا يمر دون زيارة أو اثنتين. فعلاقته بالمكان لم تنقطع مهما كانت المشاغل والأعباء، اللحظات التي يقضيها هنا كانت تغسله من الغبار والدنس.

أو هكذا كان يقول لنفسه.

يشعر أن العاصمة تشبه امرأة داعر تلوث كل ذرة في جسمه وتوصمه بالخطيئة، لكنه لا يستطيع أن يحل علاقته الآثمة معها، يغرق معها في خضم الضجيج والغبار والدخان والقرف.

عودته إلى هنا تجعله يشعر أنه عائد إلى أمه، تجعله يشعر أنه يمارس طقسًا لاهوتيًا بالاعتراف بالخطايا والتخلص منها في أعماق البحر، بحر يوسف الذي سرعان ما تظهر القمامة والأوساخ التي يلقيها ناسه على السطح، ذلك البحر الذي لا يحب أن يدفن قذاراته في بطنه كغيره من البحار، وهو ما يميزه عن غيره بالرغم من أنه مجرد فرع صغير للنيل العظيم. يشعر أحيانًا أنه يشبهه.

كلاهما واضحان لا يخفيان شيئًا في قاعهما، سطحهما يفضح ما يمور به القاع.. إذا غاص أحدهم داخله لن يجد خبيئة من ذهب أو لؤلؤ.

كل خطوة يخطوها بمحاذاته تجعله يقترب أكثر من أشيائه الأليفة التي فقدها مع دوران عجلة الزمن أو كما كان يظن.

قصر الثقافة الذي شهد بداياته الساذجة وسعاداته الصغيرة وأحلامه التي نبتت يومًا بعد يوم وباتت شجرة مثمرة يقذفها البعض رجمًا وضغينة، ويقذفها آخرون لينعموا بثمارها لعلها تسقط.

محطة القطار التي دائمًا ما تثير الشجن في نفسه.

كل المحطات التي مر بها لم تستطع إحداها أن تعطيه ذلك الإحساس الذي يجده بانتظاره في محطته الأثيرة، كل المحطات يشعر معها كم هو غريب ووحيد برغم الأصدقاء والمعارف والزملاء والرفقة، محطته وحدها لا يشعر معها بذلك الشعور المضني، ربما لأنه لم يقصدها يومًا من أجل السفر، يقضي الساعات فوق مقعد برصيف المحطة متأملا البشر في سفرهم المتواصل إلى محطة مستحيلة يجدون فيها فتات حلم سقط من أيامهم ويواصلون البحث عنه بدأب.

مقهى القللي حين يتجمع الرفاق والأصحاب في المساءات يتعاطون الشعر والأدب والسياسة والأحلام. وأحيانا السخط على العالم وهزليته التي لا معنى لها.

الشوارع والبيوت والحارات.

ميدان قارون المكتظ بباعة الترمس والذرة والتسالي، وأواني الفخار المتراصة إلى جوار هدير السواقي الذي لا ينقطع، وصناعات القش التي يأتي بها التجار من القرى ليبيعوها للسائحين.

كافيتريا المدينة وذكرى أول لقاء مع فتاة. لا يمكنه أن يقول أول حب، الحب الأول كان حُبًّا أخرس، حُبًّا أسير النفس ولوعاتها وأحلامها.

ذكرى أول قبلة بريئة اختطفها بعيدًا عن العيون المتلصصة في مبنى القصر القديم.

دار الكتب.. عبدالقاهر الجرجاني، الجاحظ، ابن عربي، المعلقات السبع.
التفت إلى شوقي فجأة وكان وجهه متجهمًا وسأله:
- هل بنوا البرج مكان دار الكتب؟
- كان ذلك منذ زمن.
- منذ متى؟
- خمسة عشرة عامًا أو يزيد.
صدر منه صوت يشبه مواء قط فقد صاحبه وقال بأسى:
- تخيل.. لم ألحظ وجوده إلا اليوم.
إلى جوارهما مرت فتاة مفعمة بالشباب والحيوية والأنوثة، استرقا النظر إليها فشعرا بدفء يسري في أوردتهما.
عن بعد تابعا عيون الأولاد والبنات الجالسين فوق المقاعد الخشبية والمصاطب الإسمنتية بحديقة الميدان وسمعوا ضحكاتهم التي ترقص فشعرا بغصة.
- أحيانا تكون الأشياء واضحة أمامنا، ولا تحتاج إلا إلى أن نفتح عيوننا لنراها.
لم يُفاجأ حين وجد هبة الشناوي هناك في مكتبه، خبط جبينه بكفه ودعكه متذكرًا أنه هو من أرسلها إليه في بني سويف.
(يبدو أننا جميعا شربنا من الصحن ذاته).
قال في نفسه وهو يعاود عتابها أنها انشغلت في رحلتها عن رؤية الحقيقة، لا يبقى الأصحاب على حالهم، كما لا يبقى الزمن على حاله، فلماذا ظن نفسه في مأمن من حاتم فهمي؟
ذهب إليه كقشة أخيرة يتمسك بها قبل السقوط، كان يعرف علاقته بالأجهزة الأمنية التي باستطاعتها أن تبدل كل شيء وفق قرارها. لن يكلفها الأمر أكثر من جملة صغيرة، لن تستهلك إلا حبرًا زهيدًا، (الحالة الأمنية لا

تسمح)، جاءته أخبار بتكليف ناشر مجهول برئاسة المؤسسة مكانه، حتى لم يكلفوا أنفسهم بالإعلان عن مسابقة لشغل المنصب. حاول أن يعرف عنه شيئًا، أطلق رجاله في كل مكان ربما يعودون بصيد يجعله يمنع القرار من الصدور لأيام يستطيع خلالها استخدام علاقاته للضغط على أصحاب القرار، لكنهم عادوا بشباكهم خالية، لا أحد يعرف عنه شيئًا أكثر من أنه ناشر صغير افتتح دارًا للنشر بوسط البلد، لم يلمع اسمه هنا أو هناك.

ستكون مأساة أن يضيع مقعد الرئيس من بين يديه من أجل ليلة مع امرأة. من أجل ديوان لن يقرأه إلا عشرات يستمنون على حروفه، بينما الآلاف والملايين يتابعون المواقع الإباحية على النت أو عبر قنوات القمر الأوروبي!

هل يتركهم يقدمون رأسه كقربان على مذبح السياسة من أجل شيخ مهووس كتب مقالة هنا أو هناك عن كتاب، فتتلقفها الأيدي كتعويذة سحرية يتجاذبونها بينهم لخنق سيف ناصر وحده.

كان يعرف أن ما حدث مدبرًا لإلهاء الناس بأخباره في الجرائد والمجلات والفضائيات ليغطي على أحداث السياسة وأفعالها.. لكن ما ذنبه هو؟

حين وجدها هناك ترك شباكه بالشط ولم يلقها في البحر الذي أبت حيتانه أن تخرج، ولن تخرج في سبتهم أو غيره.

استسلم لابتسامتهما المفتعلتين وبادلهما بابتسامة طافحة بالألم.

رشف رشفة من كوب الليمون الذي وضعه عامل البوفية أمامه قبل أن يتركهم وينصرف، وسأل حاتم فهمي أن يجيبه عن سؤال واحد فقط.

- من هو؟!

ارتفعت ضحكة حاتم فهمي حتى ظن أنها هزت مبنى لاظوغلي كله، قام على أثرها سيف ناصر منسحبًا، لكن حاتم أمسك به قبل أن يغادر مكتبه، قائلا:

- هتفرق؟

- ربما.

قالها سيف ناصر وهو ما زال مصرًا على الرحيل، بعد أن تأكد لحظتها من ضياع كل شيء وليس مقعد الرئيس فقط.

- تبع الهانم.

- أية هانم؟!

سأل سيف ناصر متعجبًا، وقد تباطأ بنظراته ناحية هبة الشناوي التي كانت تبادله النظرات بتحدٍّ.

- لاااا.. يبدو أن ذكاءك خانك بجد.. يبدو أن معهم حق حين أعفوك من المنصب.. هل يوجد في البلد إلا هانم واحدة؟!

قال حاتم فهمي بعد أن عاد إلى مكتبه مستلذًا بفرك سيجارة بين إصبعيه، بينما يجر سيف خطواته المهزومة مودعًا.

***

داعبتهما نسمات المساء برفق ولين، وبدا صمتهما لائقًا بما أبداه المساء من مشاعر حانية.

سيف تأبط ذراع صاحبه ودعاه ليكملا ترجلهما على رصيف الكورنيش الذي اكتظ بالأسر التي خرجت بحثًا عن نسمات المساء البارد. ويتخففا من أثقالهما.

يحث شوقي خطاه تارة ويتباطأ تارة. يحدق بعينيه في قصر الثقافة الذي مر أمامهما ويتأمل المبنى الذي صُمم على شكل هرم مقلوب ويحاول الإمساك بفكرة من الأفكار الباهتة الخالية من الملامح التي تدور برأسه. لا يعرف سر الأسى الذي داهمه وتراكم فجأة فوق صدره ثقيلا كصخرة من حديد سقطت من كوكب الصقيع.

ربما كان سفر أحمد السبب في شعوره المتزايد بالوحدة.

حين يقول إنه وحيد فلا يوجد أي مجاز بالعبارة، فهو أصبح وحيدًا فعلا. كان أحمد آخر ما تبقى له، هبه ضاعت. زوجته ماتت وتركت الأيام ثقيلة بعدها، تمر متباطئة بلا معنى. أصحابه انشغلوا في حيواتهم الأكثر صخبًا. أنور شفيع سافر منذ سنوات إلى الخليج بحثًا عن سراب. ولا يراه إلا في أيام الإجازة القصيرة التي يقضيها في إنهاء الإجراءات لسفر جديد.

من سفر إلى سفر ومن عام إلى عام تقلصت لقاءاتهما واقتصرت على لحظات وداع روتينية فقدت معناها.

حاتم فهمي فقده منذ زمن بعيد، ربما منذ اللحظة التي خطا فيها خطوته الأولى بكلية الشرطة. كما كان يتوقع أنور دائمًا.

سيف ناصر احتله المنصب كما احتلته العاصمة بمغرياتها من قبل، وحين عاد لم يكن إلا بقايا شائهة من إنسان قديم حمل الاسم ذاته.

وأخيرا لحق بهم أحمد، اختطفه السفر إلى أحضانه ليترك حضن أبيه فارغًا وباردًا.

لم يعرف بما يرد عليه حين قال:

- كان بودي البقاء إلى جوارك. لكن لا أريد أن تأكلنا الحسرة والأشياء تضيع من بين أيدينا واحدة بعد أخرى، بينما الآخرون يغتنمون كل الفرص.

كان يعرف أنه يقصد مي.. تلك البنت التي أحبها ولا يملك أن يساعده في الارتباط بها قبل أن تضيع من بين يديه كما ضاعت أشياء كثيرة من يد أبيه، وأن سيول الألم تجرف مشاعره الصغيرة بلا هوادة، لكنه عاجز أن يمد له قارب النجاة.

(كان عليه أن يسافر ويبحث عن فتات الفرص للإمساك بالحياة).

هكذا حدث نفسه حتى لا يحس بألمه يكبر، استوقف صاحبه ثم لم يجد ما يقوله فواصل السير.

- هل كبرنا يا سيف وسرقنا الزمن؟

سأله وشعر بأن قدميه تثقلان وخطواته تتباطأ، لم يرتح للشعور بأنه موضع رثاء من أحد، لكنه حين حدق في عيني سيف وجدهما بلا تعبير.

زم شفتيه غاضبًا، وقال في نفسه: (سأبحث عن القاتل، وعن الضحية، سأبحث عنهما لأجد نفسي بعيدًا عن صفحات الكتب بشرًا من لحم ودم).

تأمل سيف التجاعيد العميقة التي انتشرت في أنحاء وجهه وتخيله أكبر عمرًا.

دوت سيارة إلى جوارهما بعنف، تابعها للحظة بحنق وانصرف إلى متابعة فلول الظلام التي تندفع بشراهة إلى الشوارع برغم أعمدة الإنارة التي تنبت على طول كورنيش البحر الذي يشطر المدينة إلى نصفين، ثم انبرى قائلا:

- ودار الكتب أين أقاموها؟

- بعض الكتب أعطوها لمكتبة المحافظة، والباقي أودعوه المخازن لتظفر الفئران بنصيبها منه.

***

عن الكاتب
أحمد طوسون

- أحمد محمد طوسون عبد العزيز.
- من مواليد ديسمبر 1968.
- حاصل على ليسانس الحقوق- جامعة القاهرة، 1990.
- محام حر.
- عضو اتحاد كتاب مصر.
- عضو لجنة ثقافة الطفل بالمجلس الأعلى للثقافة.
- عضو أمانة مؤتمر أدباء مصر.

صدر له:

- "مراسم عزاء العائلة".. رواية- دار شريف للنشر والتوزيع 2006.
- "تأملات رجل الغرفة".. رواية- هيئة قصور الثقافة 2011.
- "القصص الفائزة بجائزة جنوب المتوسط".. قصص- دار ميريت الإيطالية 1997.
- "مجرد بيت قديم".. قصص- على نفقة الكاتب 1999.
- "شتاء قارس".. قصص- هيئة قصور الثقافة 2000.
- "عندما لا تموء القطط".. قصص- هيئة قصور الثقافة 2003.
- "فتاة البحر".. قصص- دار أرابيسك للنشر والترجمة 2011.

في أدب الأطفال:

- "حكاية خير البلاد"- قطر الندى- هيئة قصور الثقافة 2003.
- "حكاية صاحب الغزلان"- دائرة الثقافة والإعلام- حكومة الشارقة 2006.

- "أحلام السيد كتاب"- دار روائع مجدلاوي للنشر- الأردن 2010.
- "دجاجات زينب"- دار شريف للنشر والتوزيع 2009.
- "أرنوب وصاحباه"- كتب الهلال للأولاد والبنات 2013.
- "الصندوق والكنز"- قطر الندى- هيئة قصور الثقافة 2013.
- "جهاد تذهب إلى المدرسة"- المركز القومي لثقافة الطفل 2014.
- السلاحف يمكنها أن تطير"- هيئة الكتاب 2013.
- "أنا البرلمان"- كتاب الهلال للأولاد والبنات 2015.

الجوائز:

فى مجال القصة والرواية:

- جائزة المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة في الرواية للعام 2001/ 2002.
- جائزة القصة لدول جنوب البحر الأبيض المتوسط التي نظمها إقليم لجوريا الإيطالي عام 1996/ 1997.
- جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة في القصة القصيرة عام 1997.
- جائزة الانتفاضة في الإبداع التي نظمتها جريدة الأسبوع القاهرية عام 2000.
- جائزة أدب الحرب في القصة القصيرة التي نظمتها جريدة أخبار الأدب بالتعاون مع مجلة النصر والشئون المعنوية بالقوات المسلحة عام 1996.
- جائزة العقاد الأدبية في القصة بمناسبة مئوية العقاد للعام 1997.
- جائزة دار نعمان للثقافة للعام 2006.
- جائزة إذاعة BBC ومجلة العربي 2009.
- جائزة اتحاد كتاب مصر في مجال القصة عن مجموعة "فتاة البحر"، الجوائز الخاصة (جائزة الدكتور حسن البنداري في القصة القصيرة) 2014.

في مجال أدب الأطفال:

- جائزة الدولة التشجيعية في رواية الفتيان عام 2012 عن رواية "أحلام السيد كتاب".

- جائزة الشارقة للإبداع العربي التي نظمتها حكومة الشارقة لعام 2005/ 2006 عن قصة "حكاية صاحب الغزلان".

- منحة مؤسسة محمد بن راشد عام 2008 عن قصة "أحلام السيد كتاب".

- جائزة دار الحدائق بلبنان عام 2009 عن قصة "السلاحف يمكنها أن تطير".

- جائزة المركز القومي لثقافة الطفل عام 1998 عن قصة "حكاية الليل والنهار".

- جائزة المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة للعام 1998/ 1999 عن مجموعة قصص "نم نم.. تاريخنا مهم".

- جائزة أدب الحرب التي تنظمها مجلة النصر بالتعاون مع الشئون المعنوية للقوات المسلحة لأعوام متعاقبة.

- جائزة سلسلة الكتب الثقافية للأطفال عن مكتب التربية العربي لدول الخليج- المرحلة الخامسة عن مسرحية "كتاب التاريخ".

- جائزة سلسلة الكتب الثقافية للأطفال عن مكتب التربية العربي لدول الخليج- المرحلة الخامسة عن قصة "السلحفاء والعقاب".

- جائزة سلسلة الكتب الثقافية للأطفال عن مكتب التربية العربي لدول الخليج- المرحلة السادسة عن قصة "عرائس ندى".

- شارك بنصين من نصوصه بمقرر التربية الوطنية للصف الرابع الابتدائي للعام الدراسي 2013/ 2014 بدولة ليبيا بعد فوزه بمسابقة التربية الوطنية التي أعلنت عنها الوزارة بليبيا.

شارك في العديد من المؤتمرات والورش الأدبية، ونشرت أعماله في كثير من الصحف والمجلات الأدبية المصرية والعربية.

العنوان البريدي:

جمهورية مصر العربية

الفيوم- سنورس- شارع 6 أكتوبر

رقم الهاتف: 0846904164

محمول: 01002617533

إيميل: tosonislower@yahoo.com